عصر القنوات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

عصر الفتوات

عصر البطولة للمصريين أيام الاحتلال

والوزراء والباشوات

دكتور حسين مؤنس

مقدمة الرواية

الفتونة : عمل عرفته مصر من منتصف العصر التركى ، فإن الأتراك كانوا يعهدون فى حكومة مصر إلى مماليك يؤدون لهم مالاً معيناً كل سنة ، ثم يتصرف المماليك فى مصر بعد ذلك كما يريدون ومعنى ذلك أن أولئك المماليك كانوا يشترون مصر من الأتراك .

ولم يكن أولئك المماليك يشبهون رجال عصر المماليك الكبير ، فقد كان مماليك العصر المملوكى الكبير بقسميه : البحرية والبرجية أمراء مثقفين عندهم شهامة وبسالة ، وكان لهم فخر بمصر واعتزاز بها إلى جانب إيمانهم الدينى العظيم ، وما من أمير مملوكى إلا بنى مسجداً عظيماً تفخر به مصر إلى اليوم ، وكانوا ينفقون فى إنشاء هذه المساجد خيرة أموالهم ، وأمامك مساجد الغورية والجمالية وسيدنا الحسين ، وكلها تحف معمارية تكلفت عشرات الألوف من الدنانير ، ولكن المماليك كانوا كرماء ، وكانوا مؤمنين بالله ، وكانوا يحبون الفن وينفقون خير أموالهم فى الأعمال الفنية ، ولم تقتصر تلك الأعمال الفنية القيمة على المساجد ، بل أنفقوا أيضاً على الكتابات ، ولازالت بين أيدينا تحف خطية أنفق عليها المماليك مالاً ضخماً وهى غاية فى الجمال ، وبعضها مصاحف كاملة .

أما مماليك العصر التركى فكانوا بقايا مماليك ، كانوا بكوات

أقـرب إلى الفقـر منهم إلى الغنـى ، ولم تكن لهم حكـومـات ، أى أن الناس العاديين فى القـاهرة والإسكندرية وكبـار المدن والأرياف لم يكن هناك من يحميهم من المماليك أو من أمثالهم .

وهنـا ظهـر الفتوات ، وهـم مصريون أصـلاء فيهم شجـاعـة وبسالة ، فكانوا ينشئون فرقاً من المقاتلين ، ويتولون حماية التجار وأهل الأموال ، بل أهل الشوارع والحوارى ، وكانوا يجمعون أموالاً ويستطيعون مواجهة المماليك ، وشيئاً فشيئاً أصبحوا قوة فعلية فى البلد . كـانوا يحمـون التجار لقـاء مال ، وكـانت لهم شبـه جيوش صغيرة ، لأنهم كانـوا رجالاً شجعانـاً يستطيعون خـوض المعارك وكسبها.

ولم يكن الفتـوات لصـوصـاً وإن كـان بعضهم اتجه إلى اللصوصية ، ولكن هؤلاء لم يكونوا يستطيعون الاستمرار فى العمل لأن الفتـوة الأصيل لابد أن يكـون رجـلاً شجاعـاً بـاسلاً ، وكـان الفتوات يخوضون المعارك ويكسبـونها ، وكان المماليك يستعينون بهم ، لأن المماليك فى العصر العثمانى لم تكن لهم قـوات عسكريـة ، وكـان من السهل على أى فتـوة مواجهتهم ، ولهذا كـان المصريـون يميلون إلى الفتـوات ، لأنهم مصريون أسـاساً ويعتمـدون عليهم ، وشيئـاً فشيئاً أصبحت الفتـونة جـزءاً من النظـام العام فى البلـد ، وأصبح لكل حى من أحيـاء القاهـرة فتوة ، ولكل مـدينة فى الـوجه

البحـرى أو القبلى فتـوات ، وكـانت المعـارك مستمـرة بين بكـوات المماليك وفتوات المصريين .

وعندما انتهى العصر التركى وقامت حكومة محمد على فى مصر رأى هذا الرجل أن يعتمد على الفتوات ، فهم رجال أقوياء ولهم قوات عسكرية معقولة ، وسـار التعاون بين الجانبين فى طريقه حتى جاء عصر الاحتلال الإنجليزى . وفى أول الأمر تـرك الإنجليز الفتوات ـ أول الأمـر على حالهم مـادامـوا لا يعترضون على الاحتـلال ، ولكن عندما شرعوا فى بناء البوليس فى مصر بدأ النزاع بين الجانبين . وكلما قـوى البوليس ضعف أمـر الفتوات حتـى قامت الحركـة القوميـة المصريـة وثورة سنـة ١٩١٩ ـــ انضم الفتوات إلى حـزب الوفـد ، وشيئاً فشيئـاً ـ ومع زيـادة قوة البوليس ـــ أخذ الفتـوات يختفون حتى انتهى ذلك النظام نهائيًّا خلال الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن .

وأصل الفتونة عربى ، فهو نظام رياضى أسسه بعض الخلفاء فى العصر العبـاسى الثـانى لتقـويـــة الشعب وحمايـة النـاس من اللصـــوص والخارجين على القانـون ، وقد اشتهـر الخليفة النـاصر العباسى باهتمامه الكبير بالفتـونة ، فقد جعل نفسه كبير الفتوات ، وجعل للفتونـة ملابس خـاصة ونظامـاً واسع المدى ، فانتشرت فى العالم الإسـلامى كله واشتهـر أمرهـا ، ومن هنا عـرفت مصر هذا

النظام ، واتسع مداه فيها .

★★★

وفى هذه القصـــة التى حكاهـــا لى أحد الفتـــوات فى ظروف سيرد ذكرها فى الكـــلام ، نرى كيف كان الفتوة يعمل ، وكيف يـــدخل عالم الفتوات ، ونرى أيضاً كيف انتهى عصر الفتوات .

وهذه المقدمة ليست إلا تعريفاً يسيراً بالفتونة وتطور نظامها ، ولا شك فى أننـــا نحتاج إلى دراســـة هذا النظـــام وتاريخه وتطـــوره ، وأرجو أن ينظر فى ذلك أحد المتخصصين فى تاريخ مصر الحديث.

وهذه القصـــة تقدم لمن يـــريد دراســـة هذا النظـــام مادة طيبـــة أخذتها من فتـــوة ودونتها أيام قصـــهـــا على ثم كتبتها بعـــد سنوات . وكنت أتمنى لو كانت كـــاملة أوْفَى مما حكيتها هنا ، ولكنهـــا معقولة وكاملة على أى حال .

د/ حسين مؤنس

أهم شخصيات الرواية

خليل الجوهرى :

الفتوة ، بطل القصة فى الخمسينات المتأخرة من عمره .

حسنين الدَّمْهوجى :

فتوة شارع محمد على وحى الجمالية قبل خليل الجوهرى .

محمود النطاط ـ رجب العصفورى :

من رجال خليل الجوهرى .

الست جليلة :

زوجة خليل الجوهرى الأولى وأم ولده إبراهيم وابنته نفيسة .

أم عبد الحميد :

اسمها رقية وهى آخر زوجات المعلم خليل الجوهرى وأثبتهن إلى جواره ، وهى بطلة الرواية ، فى أوائل الخمسينات من عمرها سنها فى أول الرواية ٣٠ سنة وفى آخرها ٦٠ سنة .

سليمان عفيفى :

فتوة صغير يقتل فى إحدى معارك خليل الجوهرى .

بيومى العتر :

فتوة حى آخر ، يرغب عدد من الفتوات فى القضاء عليه .

إبراهيم :

الابن الأول لخليل الجوهـرى . كـانت سنه حـوالى السادسة عشرة من عمره .

المعلم حمدان أبو كرشه :

فتوة يدخل فى معركة مع خليل الجوهرى .

شهاب أبو زكريا :

عضو فى فرقة خليل الجوهرى ، كان رئيساً لجماعة المقاتلين ، فى العشرينات من عمره .

يعقوب الزَّنط :

رئيس المقـاتلين فى فرقـة خليل الجوهـرى فى الثلاثينـات من عمره .

بكـــرى :

ثـانى قواد الـرجـال فى جماعة الجوهـرى . حاول أن يكـون رئيس المقاتلين بعد يعقوب الزَّنط ولم يوفّق .

الحاج الشواف :

فلاح صعيدى ، إنـه رئيس عائلة يعقوب الـزَّنط فى الستينات من عمره .

محمد منسى طنطاوى :

رئيس المقاتلين فى جماعة الجوهرى ، وهو شجاع ، وهو الذى يرث منه الفتونة .

الدكتور رؤوف عبد السلام :

أكبر الأطباء الباطنيين فى مصر فى أيام الجوهرى ، أى فى الثلاثينات من هذا القرن .

عوضين العتر :

فتوة حى الخليفة .

عبد الله قرشانة :

فتوة حى القلعة .

رجائى بك لطفى :

مندوب حزب الشعب فى انتخابات محمد محمود فى أواخر الثلاثينات .

إسماعيل خميس :

مرشح الوفد عن حى الجمالية فى نفس الانتخابات .

عائشة :

بنت الشيخ عبد الله شعبان الشواف ، يتزوجها خليل الجوهرى .

عم منسى العطار :

عطار فى الستينـات من عمره ، يستخدمـه خليل الجوهرى فى إنشاء عطارته .

محمود أبو راسين :

فتـوة حى الحسين الـذى ينـافس خليل الجوهـرى وتـدور بينهما معركة .

رجب الفنجرى : مساعد المعلم الجوهرى .

المسيو بولوناكى : أرمنى يعمل فى البوليس المصرى.

على الحجاوى :

كـان كبير رجال الفتـوة محمـود أبو راسين ، وقـد انضم إلى المعلم خليل الجوهرى .

جمعـــة :

خادم ، وهو مساعد أم عبد الحميد .

سليم بك الجمال :

مندوب حزب الأحرار الذى يضربه خليل الجوهرى .

توفيق الربيعى : فتوة باب الخلق .

إينـــاس :

ابنة توفيق الربيعى ، يتزوجها المعلم خليل الجوهرى .

محمود صالح : فتوة حى العباسية فى العشرينات .

شعبان محمود صالح :

ابن فتوة العباسية . فى أواخر العشرينات .

أبو الفتوح محسب الدردير : عمدة الباطنية .

رمضان الدجوى :

رئيس مركز تجارة الحشيش فى الباطنية .

رضوان أبو رصاص :

من كبار رجال شعبان محمود صالح فتوة العباسية .

رمضان العتابى :

رئيس المهربين فى الباطنية .

رشاد القباقيبى :

بطل مصـــرى شـــاب ينتصر على الإنجليز فى معـركة (١٧ سنة).

عطا عبد العال : أحد جواسيس خليل الجوهرى .

رجب عبد السلام : صول مدفعية فى المحافظة .

★★★

كان المعلم خليل الجوهرى يقول إنـه خالى ، وماهو بخالى بأى حال من الأحـوال ، وقد سألت كل أقـربائى إن كانـوا يعرفـون لنا قريباً يسمى المعلم خليل الجوهـرى ، فلم أجد أحداً منهم يعترف به أو يريد سماع اسمه ، فقد كان الـرجل فتوة حى المناصرة فى شبابه إلى سن الستين ، وكان أيام فتوته جباراً ومصيبة و « بلوة مسيحة » على نفسه وعلى النـاس ، فقد كان فى شبابـه يضرب وينهب ، وكـان وراءه جماعـة من المتعطـــلين (العـواطلية) الـذين يـرتكبـون البشاعـات ويحطمون مصابيح المقـاهى وينهبون إيرادهـا ، وكان عساكر البوليس يرهبونه ويقولـون إنه شرير حقًا ، وكانوا يقولون إن الضابط إذا أمر بحجزه فى القسم ليلة لم ينم من أهل القسم أحد من الضـوضـاء التى يثيرها والفـوضى التى ينشرهـا ، حتى كـان أتباعه يصرون على إدخال الخمـر إليه ليشرب فى التخشيبة ، وكانت الخمر تصل إليـه ويشرب ، وقد عقل الرجل وتغير من هذه النـاحية فيما بعد ، وكل ذلك لم يكن حقيقياً كما سنرى .

ولكن أسوأ ماكان ينفرنا مـن الفتوات هو الذى جعلنا كلنا نتبرأ من الفتـوات وماكـانوا يفعلـون ، جعل الناس يتبرءون منهم هـو إصرارهم على أن يرقصـوا أمام كل زفة عـرس تمر فى الحى ، وكان رقصهم بشعًـا ومعيباً فيـه حركـات مشينة . وكـان الواحـد منهم يرقص وفى يده (شومة) يرفعها بيديه ويرقص وأتباعه يصفقون ، وهذه (الشـومة) نفسها كان يستعملهـا فى ضرب الناس وتحطيم المقاهى وفوانيس النور ، بل ضرب بها إحدى زوجاته فكسر فخذها

فهى شومة إجرامية دموية ، وكانوا يقولون إنه كان إنساناً بغيضاً وحقيراً فى تصرفه أحياناً ، وإن كان موسراً وذا أملاك ، وكان بيته فى طرف حَىّ المناصرة الذى يخرج إلى ميدان باب الخلق واسعاً وجميلاً وكانوا يقولون إنه يجلس أمامه هو وأتباعه أحياناً ويسكر ويضحك ويعربد ويأكل كالحيوان وكل هذا الكلام وإن كان صحيحاً عن غيره من الفتوات ، أما هو فكان فتوة نظيفاً لأنه نشأ فى أسرة غنية افتقرت ، وكان قوى البدن جدًّا ، ومن هنا دخل عالم الفتوات .

أما أسطورة أنه خالى فسببها ـ فيما أظن ـ أنه كانت له أخت طيبة جدًّا لها خمسة أولاد ، وكان زوجها فى حال طيبة ، ولكنَّ ابنها الكبير كان ضعيفاً جدًّا فى اللغة الإنجليزية والعربية والحساب ، وكنت أنا أول الفصل ، وكنت أحبه لطيبة قلبه ، وكان كل يوم يحضر معه سندويتشات ويأكل ويعرض على ، وما كنت آخذ منه شيئاً لأننى لم أكن مطمئناً إلى النظافة ثم عرض على أن أدرس له اللغة الإنجليزية والعربية ، والحساب أيضاً ، أو قل إنه عرض على أن أشرح له كيف يستذكر هذه العلوم فوافقت وذهبت إلى داره ، وكانت أمه سيدة طيبة جدا ، وبدينة جدا ، وكانت تقدم لنا طعاماً دسماً لا أطيقه وكنت أفضل عليه الخبز والدقة والزعتر ، وكنت أحضر الدقة والزعتر معى فى علبتين صغيرتين من الصفيح ، وأشرح لمبروك وآكل ، فإذا نهض للطعام مع أمه وإخوته انصرفت إلى دارى .

والمعلم خليل الجوهرى كان خال مبروك هذا لا خالى أنا ، وكان

يحبنى لأننى أساعد ابن أختـه ، وفى ذات مرة كنت عـائداً إلى بيتى عندما تبعنى رجل كانت بينه وبين جدى خصومة وجعل يشتمنى ، ثم جرؤ ومـد يده على ، وتصادف أن كـان عم خليل مقبلاً دون أن يراه ذلك الـرجل ، وأجارك الله ! أمسك بـالرجل وشتمـه ثم رفعه فى الهواء وضرب به الأرض وعجنـه عجناً حتى قلنا إنه مـات ، وتناول الشـومة وهم بضربـه لـولا أن الناس منعـوه ، والـرجل الملقى على الأرض جعل يصيح : أنا فى عرض النبى ! حـرمت والله ياعم خليل ! والله ماكنت أعرف أنه ابن اختك ! حوشوه ياناس أبوس إيديكم ! .

وحاشه الناس ، ومضى عم خليل وجلس على كرسى أمام محل بقالة وقـال للرجل : هات لى شيشة ، والـرجل أسرع إلى المقهى وعاد ومن خلفه صبى القهـوجى بالشيشة وقال : هـذه أحسن شيشة فى كل المناصرة ، وأنا دفعت التكاليف ، أهلاً وسهلاً ، زارنا النبى !!.

★★★

ومنذ ذلك اليـوم أصبحت مشهوراً بأننى ابن أخت عم خليل ، ولم أجد مايدعو إلى تكذيب ذلك ، فقد أعطانى أهمية كبرى فى الحى ، فكنت أذهب مثلاً لأشترى ثُمن جبنة رومى فيعطينى البقال ضعف ما طلبت وعليه رغـيف خبز ! وكنـت أطـلب (قرص جبن أبيض دمياطى) وكان ثمنه آنذاك ثمانية قروش ، فلا يتقاضى الرجل منى إلا خمسة ، ويرسل ورائى صبيا يحمل لى الجبن إلى البيت ، وهكذا .

ومن ذلك الحين عرفت قيـمة القوة والإرهـاب وعـرفتُ معنى

(الفتونـة) وأهميتها ، فقـد كان ذلك الـرجل ـ خليـل الجوهرى ـ يسير فى الشارع كأنه ملك وفى يده الشـومة ووراءه عدد من الأتباع لا يقلون عن خمسة ، وكل منهم خادم له مطيع لأمره ، وكان يعيش مجاناً ، فهـو لا يدفع ثمن شىء يشتريـه ، لأن الناس كانـوا يتقون شره بإعطائه الأشياء مجاناً .

وكان الرجل يقطن إلى جانب بيت أسرته الذى ذكرناه فى بيت من دور واحـد وغـرف كثيرة ، ولـه حـوش واسع مسـور فى عطفـة الطـاحونـة ، وعلى الباب تقف جماعـة من (العـواطلية) يسمـون أنفسهم حرس المعلم . وكان هؤلاء الـرجال يقضون معظم وقتهم فى المسارح والكـازينوهات ، وكان المعلم يتقـاضى عن كل زفة تمر فى الشارع مـا لايقل عن خمسة جنيهات وإلا تحولت إلى مـذبحة ، وفى بعض الليالى كـان إيراده يصل إلى ثلاثين جنيهاً يـوزع منها عشرة على الأتباع ، ويختص أم عبـد الحميد ـــ التى أصبحت زوجته فيما بعد ـ واسمها رقية ، وكانت صغيرة السن جدًّا عندما زوجوها منه ، ولكنها أحبته لأنه كـان رجلاً طويلاً عريضاً ، وكـان وجهه جميلاً ، فتعلقت بـه البنت وأنجبت منه غـلاماً سمـوه عبد الحميـد فأصبح اسمها أم عبد الحميـد ، وقد أكثر الرجل من الـزواج عليها ، ولكنها هى لم تكرهه أبـداً ، فقد كانت شديدة التعلق به ، وكـان هو يحبها أيضاً لأنها كانت جميلـة ومطيعة ، وقد عاشت معه عمـرها كله على الرغم من أنه لم يعرف قدرها إلا عندما كبرت سنه ، وسترى أن هذه الإنسانة الكريمة ستظل معه إلى أواخر أيام حياته .

وكان الرجل طويلا عريضاً وأصبح في الأربعينات من عمره ، حسن الطلعة ، وكان الحلاق يجيئه كل صباح ويحلق له ذقنه ويهذب شعره ويأخذ الطربوش وينظر إليه فإذا لم يعجبه ذهب به إلى الطرابيشى فنظفه وكواه وعاد به يتألق ، وكان المعلم يلبس جلباباً أبيض يميل إلى السمرة أو الصفرة ، وعليه معطف أسود يصل إلى القدمين ، وكان يلبس حذاء جميلاً لامعاً دائماً ، وكان إذا أكمل لبسه ووقف وبيده الشومة بدا مهيباً جدًّا، وكان جريئاً وشجاعاً ، وما من خناقة دخل فيها إلا ضرب الجميع وخرج منتصراً ، وكان قويا حتى إنه كان يلقى الكرسى ويحطم به المصباح وبعد الخناقة والنصر يدور النهب ، وكل المنهوبات توضع أمامه وهو يوزع منها على أتباعه بحسب مزاجه ، ولا يملك الواحد منهم حتى لو لم يكن راضياً عن نصيبه ـ إلا أن يشكره ويقبل يده ويقول (ربنا يخليك وينصرك على أعاديك ياسيد المعلمين والفتوات) .

والطريف فى هذه الشخصية أنه كان يحترم كبار التجار ، وهم يحترمونه ويعطونه ما تيسر فى السر ـــ ليأمنوا على متاجرهم ، وكان يحميهم ومتاجرهم فعلاً ، وكان يجلس إليهم ويشرب القهوة معهم بكل احترام ، ولكن من يتأخر منهم فى الدفع فالويل له ، وكانت منطقة نفوذه تشمل [المناصرة كلها ، وحارة العنبة ، ونصف شارع محمد على من العتبة إلى باب الخلق] . وكان يحترم مناطق نفوذ زملائه من الفتوات ويزورهم ويزورونه . ولكن أعجب شىء فى خلقه كان احترامه البالغ لرجال البوليس ، فكان إذا ذهب إلى قسم

الشرطة أو أخذوه إليه تهذب مع المأمور والمعاون والصول ، وكان لا يجلس فى حضرة المأمور احتراماً . وقد حكم عليه بالسجن مراراً ، وكان يتأدب فى السجن ويطيع الأوامر ويأكل الطعام فى احترام ، وكان يقول : إن فترات السجن فترات صحة وعافية له ، فقد كان يقلل من الطعام ويتوقف عن الشيشة وينام معظم الليل والنهار ، ويهب واقفاً إذا مر المأمور أو المعاون أو الصول فى السجن ولم يكن يختلط بغيره من المساجين إلا فى القليل ، وإذا كان الحكم بالسجن مع « الشغل » عمل بكل همة ، وكان يقول : إن هذه رياضة ، ولهذا كان يخرج من السجن أحسن مما دخله ، وقبل الخروج يسلم على المأمور ويدعو الله له مهما كان عنيفاً معه ، ولهذا فقد كان يخرج دائما بعد ثلاثة أرباع المدة أو النصف أحياناً إذا تصادف وحل عيد الجلوس أو مولد النبى أو أى مناسبة دينية أو قومية ، فإذا خرج من السجن استقبله أتباعه على الباب بالطبل والزمر والرقص وعادت ريمة إلى عادتها القديمة .

وكان للرجل ـــ كما قلنا ـ بيت آخر فى آخر المناصرة من ناحية المحافظة ومحكمة الاستئناف . وهنا كانت تقيم زوجته وأولاده . وكانت الزوجة بنت حلال وعاقلة ويقولون إنها جميلة ، وقد أخذت منه مالاً كثيراً واشترت بيتاً واغتنت ، وكان من قواعدها الأساسية الطاعة الكاملة لهذا الوحش ، وفى حياتها لم ترفض له طلباً ، وكانت هى التى تعنى بثيابه فتغسلها وترسلها للمكوجى ، وأصلها بنت معلم ، وكانت تقول إنها تحبه ، وهذا غير مستبعد .

كانت سيدة مليئة جميلة الوجه تزور سيدنا الحسين والسيدة نفيسة والسيدة سكينة وبقية آل البيت مرة فى الأسبوع وفى صحبتها تابعتان لها ، وأحياناً كانت تذهب معها أختها وهى زوجة تاجر محترم ، وقد أنجبت للرجل ولدين وبنتاً : واحد من الولدين مات شاباً بالسل كما يقال ، أما الثانى فقد سمعت أنه بعد أن حصل على الابتدائية تزوج ابنة تاجر من دمياط وهاجر إليها وهناك عاش حياة هادئة ميسورة ، فقد كانت أمه ترسل له مالاً وإلى هذا الابن هاجرت الأم عندما أسنت وعجزت عن خدمة زوجها المعلم ، ولكنه قنع واكتفى هو بعد ذلك بأم عبد الحميد ، وأما البنت فقد تزوجت ابن تاجر بعد أن تعلمت القراءة والكتابة وانتقلت إلى العباسية ولم تعد ترى أباها إلا فى النادر .

وقد كانت معلومات الناس عن المعلم الجوهرى خاطئة ، فقد رسم الناس له صورة فتوة عادى ، وهذه الصورة هى التى ذكرتها ألسنة الناس . أما أنا فقد عرفته عن قرب وتبينت أنه فى حقيقة أمره رجل طيب ، وإن كان فتوة حقيقياً فقد كان قوى البدن شجاعاً جداً أما ابن أخت المعلم الذى كنت أدرس له فقد أصر عمره كله على السقوط فى اللغتين العربية والإنجليزية والحساب ، وأضاف لها فيما بعد الجغرافية ، ولهذا فإنه لم يأخذ الابتدائية إلا بالعافية ، ثم تزوج فتاة ميسورة الحال ابنة تاجر لا بأس به ، وكان فتى جميلاً جداً وسيم الوجه أنيقاً ، وكان موضع إعجاب النسوان ، ولكنه كان عاقلاً فاقتصر على زوجته ، وكانت أمه ترسل إليه مالا كل شهر ،

وكان هـو يزور أمـه كل يوم جمعـة مع زوجته ويتغـديان عنـدها وربما رأيا الأب ، وكان خـاله الفتوة يحبه جـدا ويقسم به ويقول : وحياة عبد السميع ابن اختى .

وكانت له مع الجغرافية حكايـة ، فقد كان ضعيف الذاكرة جداً فكنت فى ليلة الامتحان أضع له أربعة أسئلـة وأجوبتها وأحفظها له عن ظهر قلب . وفى ذات مرة وضعت له سـؤالاً يقول : ارسم خريطة لنهر النيل وفروعه ومنابعه واكتـب عليها أسماءها وكان هذا سؤالاً سهـلاً ، ومن حسن الحظ أننى كنت قـد أعطيتـه إياه مع جـوابـه فـرسمت له خـريطـة نهر النيل وكتبت عليهـا الأسماء ، وقام هـو برسمها عشرات المرات . وقـد سعد الولد عندما جـاء هذا السؤال فى ورقة أسئلة الجغرافية فى اليـوم التالى وتأكدت أنا أنه سينجح ففى فجر يـوم الامتحان رسم هو نهر النيل عشر مرات . ولكنـه فى ورقة الإجابة رسم نهر السوبـاط على اليسار لا على اليمين ، ونقل الرسم وجـاء إلى البيت وكنت أنتظره ، وأرانى الخريطـة العجيبة ، فنظـرتُ إليهـا ودار رأسى وقلت لـــه خيـــبك الله . هل نهر الســـوباط على اليســـار ؟ أليس هو النيل الأزرق فى نفس النـاحية . أمـا نهر عطبرة فقـد رسمه خـارجاً من النيـل الأبيض عند وسطـه وقد رسمـه فى صورة خط تافه ، فلما سألتـه فى ذلك قال : هكذا رسمنا الخريطة فى الليل والفجر ، فأريته خرائطه بيده ، فنظر فيها ثم هز رأسه وقال : (مفيش فايدة . هذه الجغرافية لن تدخل عقلى أبداً) .

أمـا المصيبة الكبرى التى ارتكبهـا فى ذلك الامتحان فكـانت فى بحيرة فيكتوريا وقد رسمها فى موضعهـا تقريباً ، ولكن الرسم كان أى كلام . ثم كتب عليها [بحيرة مكرونـة] وهنا كاد نفسى يقف ، فقلت له ـ أهكذا كتبتها فى ورقة الإجابة بحيرة مكرونة ؟ .

قال : أليس هذا هو اسمها ؟.

ـ إذن خـذ وانظر ماكتبتـه أنت بخط يدك فى الفجـر ، فنظر إلى الخريطة وقال : [آه فيكتوريـا] . والله ياسى حسين لقد غاب عنى اسمها ولم تبق إلا مكرونة .

ـ وهل فى الـدنيا ياأخى بحيرة اسمها بحيرة مكـرونة ؟ فسكت قليلاً ثم قال : هكذا جاءت ، فماذا أفعل ؟ .

أما اللغتان والحساب فقد ظل يرسب فيهما بنظام كأن هذا مبدأ لا يمكن أن يحيد عنه ، وأخيراً قالت لى أمه : لا فائدة ياأستاذ ، كفاية عليه الابتدائية ، وبعد سنوات من الرسوب فى السنة الأولى الثانوية ، تـزوج تلك البنت وكـانت تحبـه ، وقد اثبت أنـه زوج طيب وعـاش وأنجب وكثر عياله فانشغل عن أبيه إلى دمياط كانت الأم ترسل إليه المال وإن لم يكن فى حاجـة إليه فقد كان حماه مـوسراً ، وقد عمل فى دكانه ونجح فى التجارة والزواج نجاحاً لا بأس به .

وانتهت أيـام « المنـاصرة » والمعلم خليل الفتـوة ، وتـركت حى المنـاصرة وعـدت إلى أهلى وانتظمت حيـاتى ، وواصلت دراستى وأصبح هـذا الماضى كله ذكـريات . وعم خليل نفسـه رغم جلالـة

شأنه وعظيم مهابته أصبح شيئاً من أشياء الماضى ، وكذلك انتهى أمر أقاربه وتلاميذى منهم وخاصة تلميذى صاحب بحيرة مكرونة .

وكنت قد ذهبت للعيش مع جدى فى حى المناصرة ، تنفيذاً لأمر أمى ، وكان هذا الجد رجلاً بغيضاً حسوداً ، وكان أولاده يكرهونه ويحقدون عليه ، لأنه رغم ماله الكثير كان أبخل رجل فى الدنيا ، وكانت أمى قد سمعته مرة يقول : أنت عندك خمسة أولاد وأنا لا أحد عندى .

فصرخت فيه :فال الله ولا فالك . لم تقول ذلك وأنت تعرف محبتى فيك ؟.

فقال لها : اعطنى واحداً منهم يعيش معى ، فأنا وحيد لأن أولادى تركونى وأنت تعرفين أنهم يكرهوننى .

فقالت له : خذ أى أبنائى تريد .

فقال : آخذ هذا .... وأشار إلىّ .

وهكذا انتقلت إلى جدِّى هذا ، وهو ابن عم أمى وعشت معه حياة هى أتعس مايمكن أن يتصوره الإنسان ، فقد كان بخيلاً جدا حتى إنه كان يطبخ مثلاً حلة سبانخ ، ويعيش عليها ، وأنا معه ثلاثة أيام وكان يأكل طعام غذائه ، ثم يأخذ الباقى بالحلة معه ويدخل إلى غرفته خوفاً من أن تأكل الطباخة شيئاً ، وفى الليل كان يعد نقوده

كل ليلة ، وكانت النقـود كثيرة جدا ، ولكن لذته فى عـدها كانت أكبر من استمتاعه بها ، فلما تركت بيته تنفست الصعداء .

حقًّا إن حيـاة حىّ المناصرة ومعـرفة المعلم خليل كـانت شيئاً ممتعـاً ، ولكنى تركتهـا وعدت إلى بيتى فـراراً من ذلك الجد البخيل الأليم ، وعـدت إلى دراستى وانتظمت أمـــورى ، ولكنى كنت أعـود بالـذكرى إلى أيـام المناصرة والمعـــلم خليل لأنـه كان فعـلاً رجلاً ممتعاً .

وعندما كنـت فى السنة الثالثة الجامعية ، كـانت لذتى الكبرى ، هى العمل فى دار الكتب فى بـاب الخلق ، وكنا إذ ذاك نسكن فى شقـة جميلة جـدا قرب شارع شيكولانى فى شبرا ، فكنت كل يـوم أخرج من بيتى إلى دار الكتب ، وكانت الـرحلة على القـــدم بديعـة جـدا ، ولا تستغـرق أكثـر من نصف ســـاعـة ، وفى دار الكتب كنت أعمل وأستمتع إلى الثـامنة مساء ولا تتصـور كم قرأت هنـاك ، فإن دار الكتب كانت مـركز العلم كله وكان فيهـا شىء يسمى مكتبة الأولاد كل مادتها باللغـة الإنجليزية ، وفى مكتبة الأولاد هـذه كنت أستذكر دروس الجامعة ثم أقرأ ما شئت من الكتب المصورة بالإنجليزية .

وفى ذات مرة ذهبت ، فإذا بـالدار مقفلـة ، لأنه كان يـوم إجازة دون أن أدرى ، فوقفت أمام الدار المقفلـة أستريح قليلاً ، لكى أعود بعد ذلك إلى بيتى ، فإذا أنا كذلك إذ أقبل شاب آخر ، كان لا يعلم هو الآخر أن اليوم إجازة ، وتحدثنا وسعدنا ودعانى إلى الشاى فى قهوة

فى شـارع محمد على ، وذهبنـا ومضينـا نتحدث ونضحك وإذا بـه يذكر المعلم خليل الفتوة فقلت له : أنت تعرف المعلم خليل ؟ .

قال : كيف لا أعرفه وهو قريبى من بعيد ! .

قلت : وأنا أيضاً أعرفه .

ـ أعرف ذلك ، لأن هذا الرجل لا يكف عن ذكرك .

ـ ألا زال على قيد الحياة ؟ .

ـ بلى ولكنَّ هذا المسكين مريض .

ـ ماذا يشكو ؟ .

ـ هذا المسكين يشكو من داء الفيل وحـالته تصعب على الكافر ، مارأيك فى أن نذهب إليه الآن ؟ .

ـ أرجوك أن تأخذنى إليه .

ومضينا معاً ، وفى الطريق قال لى : أنت لا تعرف ماذا جرى لهذا الرجل الطيب ، لقد انتهى عصر الفتـوات ، ثم سجنوه تسع سنوات لجريمة ارتكبهـا ، وخرج محطماً فسكن فى هـذا البيت الـذى تملكه امـرأة قـاسية لا يعـرف قلبهـا الـرحمة ، وقد بنت لـه غـرفتين فى السطـوح ودورة مياه هى فى نفس الـوقت حمام ومطبخ ، وكل ذلك أجرته له بجنيه فى الشهر .

وكـان هذا إيجاراً محترمـاً فى تلك الأيام ، ثم أضـافت خمسين

قرشا ، ووقف الإيجار عند ذلك ، ولم يبق من أتباع الرجل إلا تابع فى الغاية من الغبـاء ، يسمى جمعة ، وكانت معه أم عبـد الحميد ، وقد أسنَّت ولكن شكلها ظل مقبولاً ، وكـانت تملك شيئاً من المال فكانت تتعاون به مع المعلم خليل فى نفقات العيش ، أما حاله هو فلم يعرف أحد عنـه شيئاً . وكـان هو يـزعم أنه لا يملك مليماً وأنـه يعيش من الفتونة ، وكانت سنه تقارب الستين وكان قد تزوج أم عبد الحميد ، وقد صلح أمر هذه المرأة مع الشيخوخة .

وبدأ هـذا المرض وهو داء الفيل معـه من سنوات ، وقـد بدأ داء الفيل معه خفيفاً ، ثم زاد مع الوقت حتى أصبحت ساقه اليسرى فى عُرْضِ وَسَطِه ، ثم اشتد به المرض فتفتحت ساقه، وأصبحت تخرج سائلاً ، وكـانت أم عبد الحميـد تغسل له رجله كـل يوم ، ثم تضـع عليها قطعـة قماش بيضاء لتحميها من الذبـاب ، وظل هذا المسكين راقداً يزداد به المرض ، وكان عنده كـرسى يعتمد عليه فى الذهاب إلى دورة المياه ، ثم يعود ليرقد وأحياناً كان يبكى حال نفسه .

فلما دخلت عليـه مع صاحبـى نظر إلى المعلم وقـال : حسين . ياألف نهار أبيض ياابنى ، ألا زلت تذكرنى ؟ .

وتقدمت واعتنقته ثم قلت له : كيف حالك يامعلم ؟ ..

قال : زى الزفت كما ترى ، وليس معى إلا أم عبد الحميد . قلت وجمعه ..ومضينـا نتحدث وأنا ألاحظ أن الرجل مـريض فعلاً ، وفى

أثنـاء ذلك كان النـوم قد غلب عليـه فتسحبت فى هدوء على أن أمـر عليهم فى اليوم التالى .

وفى صباح اليـوم التالى ذهبت إلى قصر العينى ، وهنـاك قابلت صـديقى الـدكتور عبـد السـلام قناوى ، وحكيت لـه قصـة المعلم الجوهـرى فقال : لا فـائدة ولا علاج ، وهـذا الرجل يمـوت فى بطء خاصة وهو فى الستين من عمره .

قلت : سألتك الله يادكتور عبـد السلام إلا أتيت معى لترى هذا المسكين ، ومن يدرى فلعل الله يريد له شيئاً من التحسن على يدك .

ـ هـذا المرض لا يعالج يـافلان ، وكـل مانستطيع عملـه هو أن نغسل له الجرح ونعقمه .

ـ إذن فتعال معى وانظر فى أمره وليفعل الله مايريد .

وأتى معى ، ودخل على الرجـل وكشف عن رجله ونظر إليها .

وقال ـ لماذا تركت المرض يستفحل لهذه الدرجة ؟ .

ـ أمر الله يادكتور .

ـ ونعم بالله ، لابد أن أنقلك إلى المستشفى الآن .

ـ لا فائدة يادكتور ...

ـ لا أحـد يدرى سننظف لك جـرحك ونعقمه على الأقـل ، وهذا سيخفف عنك .

قال : لن أخرج من هنا أبداً .

قلت : بل ستخرج ، ولابد أن تذهب مع الدكتور عبد السلام قناوى ! وناديت جمعة وأمرته أن يأتينا بعربة حنطور .

وقالت أم عبد الحميد : وأنا ماذا أفعل ؟ .

قلت : ياأم عبد الحميد لابد أن ينتقل هذا الرجل من هذا المسكن الفقير إلى الدور الثانى من البيت تحتنا ، إنه ثلاث غرف وحمام ومطبخ ، وهو خال كما علمت ..

ـ ولكن إيجاره جنيهان ونصف .

ـ ليكن ولكن لابد أن تنتقلوا إلى تلك الشقة ! وبعد مفاوضة شاقة قبلت المرأة صاحبة البيت أن تؤجر له الدور الثانى بجنيهن ، وطلبت شهرين مقدماً فدفعهما الدكتور عبد السلام ، وقال الدكتور عبد السلام قناوى لأم عبد الحميد : اسمعى ياأم عبد الحميد ، أنتم لستم فقراء إلى هذا الحد لابد من هذه الشقة وإعدادها للسكن ، إن زوجك فى حاجة إلى تحسين المنظر وأنت تستطيعين أن تدفعى شيئاً.

قالت : خمسة جنيهات وهذا أقصى ماعندى .

ـ وهذه عشرة جنيهات أرجوك أن تبيضى البيت ، وتنجدى المراتب ، وتضعى ستائر على الشبابيك لحماية هذا المسكين من الذباب ، هذا المرض طويل ومؤلم ، ومن واجبنا أن نخفف عنه .

ـ أمرك يادكتور .

وحملنا الرجل إلى عربة الحنطور ، ومضينا به إلى قصر العينى ، والدكتور عبد السلام قناوى أعد له حجرة لا بأس بها ، وبعد أن دخلنا قام مع الممرضات بغسل الجرح وتعقيمه ، ثم غسلوا الرجل بالماء الساخن ، ووضعوه فى فراش نظيف ذى أغطية بيضاء وأتوا للمسكين بطعام جيد ، فأكل وأعادوا تطهير الجرح .

قال الدكتور عبد السلام قناوى : سأترك معك ممرضة تخدمك ونتركك الآن .

ـ هل سأشفى يادكتور ؟ ..

ـ الله أعلم ، على أى حال سأبذل معك أقصى ما أستطيع ، وغداً سيراك الدكتور الحوفى ، وهو أعظم الأخصائيين فى الباطنى ، وإن شاء الله ستتحسن حالك على يده .

ونظر الرجل إلى وقال : كنت أعلم أن الخير سيأتينى على يدك ، لم أكن أتصور أننى فى يوم من الأيام أنام فى فراش نظيف أبيض وأحظى بهذه العناية مرة أخرى ، ثم أضاف : اذهب الآن ياابنى فقد قضيت معى نصف يومك ، وغداً إن شاء الله أراك .

وفى اليوم التالى بعد الظهر ذهبت إليه فإذا به أحسن بكثير ، والدكتور الحوفى أعطاه دواء أوقف السائل الذى كان يسيل ، والممرضة كانت طيبة جدا والرجل تحسن حاله بشكل غريب ، وأتت أم عبد الحميد ورأته وسرها مارأت فقلت لها : هل أعجبك ما رأيت ؟..

ـ الحمد لله ثم لك .

ـ لا ، الحمد لله وحده ، إذا كان هـذا قد سـرك فأرجو أن تفعلى مـا قلت لك فى الشقة السفلى ولا تنسى البيـاض والستائر وتنجيـد المراتب .

ـ سأفعل كل ما أمرتنى به .

ـ الدكتور الحوفى قـال : إن المعلم سيظل هنا عشرة أيام ، وأظن أن عشرة أيام تكفى لكى تعملى ما طلبت منك .

ـ سأفعل كل شىء إن شاء الله .

وبعـد عشرة أيام من العـلاج فى القصر العينى تحسن الـرجل فعلاً ، وتحسنت كذلك حـالته المعنوية ، وتوقف السـائل الذى كان يسيل ، والجرح أصبح نظيفـاً وأعطونـا أدويـة للنظافـة والتعقيم ، وعدنا بـالرجل إلى البيت وقد بـدأ حياة جديدة ، والبيت كـان مزيناً بـالستـائر على الشبـابيـك ، والمراتب المنجـدة ، والحمام النظيف ، وأصبح البيت كلـه شيئاً آخـر ، وظل الرجل مـريضاً بـداء الفيل ، ولكن حـالتـه أصبحت أحسن بكثير ، وكنت قـد عملت حسـابى أن أعمل فى دار الكتب من الثالثة إلى السابعة ، ثم أذهب إلى المعلم وأظل معه إلى الثامنة أو الثامنـة والنصف مساء ، والرجل أحبنى حبًا جما وأنا أيضاً أحببته وعطفت عليه .

وبعد أن اطمأننت على حـــاله جلست على كـرسى قريبـاً منه

وقلت : والآن يامعلم ، أريد أن أعرف منك قصة الفتونة .

ـ قبل أى شىء لابد أن تتعشى معنا ، أم عبد الحميد طبخت لك ديكاً روميا ، وقد عرفنا أنك تحب القلقـاس فعملنا لك قلقاساً وكفتة ودمعة .

ـ آكل معكم إن شاء الله .

ـ إذن أنا أحكى لك ماتريد ، من أين تريد أن أبدأ ؟ .. وهز منشة فى يده يطرد ذبابة لحوحاً .

فقلت : كيف أصبحت فتوة ؟.

ـ هذه قصة طويلة يابنى ، يعلم الله أننى لولا مافعلت أنت معى ما حكيت شيئاً ، فهذه أيام مضت وبعض ذكرياتها تؤلمنى .

قلت : معى لن تتألم إن شـاء الله ، وعلى المائدة ونحن نأكل هذا الطعام الجميل ، بدأ الرجل يقص حكايتـه مع الفتونة وكان لابد من علاجـه حتى يتكلم والعلاج نفـع ، والرجل انفتحت نفسـه للكلام ، وكـان يعشق السجائر ، وأم عبـد الحميـد كانـت تلف له فى اليـوم خمسين سيجارة وأشعلت له واحدة ، وهز الرجل المنشة فى يده وبدأ يحكى ، وكانت قصة جميلة حقًّا كما سنرى .

اعتدل المعلم خليل الجوهرى الفتـوة السابق فى جلسته ، وأخذ نفساً طويلاً من سيجارته وابتسم وقـال : بعـد الذى فعلته معى لا يمكننى أن أرفض طلبك ، وصـدقنى أننى مـا كنت أنـوى قط أن

أتحدث عن الماضى الذى مررت به وأنا فتوة ، لأن الناس تحسب أن الفتونة شهامة وشجاعة مع أنها فى الحقيقة بلطجة ، ومادام فى البلد حكومة وبوليس فما لزوم الفتـوات ؟ وماذا يعملون ؟ إنهم يزعمون أنهم يحمون التجار والبيـوت ويؤمنون الأفراح ويحمـون الزفات ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا خطـراً على التجار والبيوت ونكداً وتهديداً للأفـراح وخطراً على الزفات ، وصـدقنى أننى أشعر بخجل ، لأننى كنت فتـوة لمدة تزيد على عشر سنـوات ، ولا أذكر أننى قمـت خلال هذه الفترة بعمل أستطيع أن أفخر به الآن .

ولم يكن يخطر ببالى ، وأنا فى مطالع شبابى أن أكون فتوة ، فقد كـان أبى صـائغاً ، ممن أرسلهـم الخديوى إسماعيل إلى إيطـاليـا وفرنسا لتعلُّم فن الصياغة الأوروبى وعاد جواهرجيًّا ممتازاً ، خدم الخديو والأمراء ثم افتتح محلا للصياغة ونجح نجاحاً عظيماً ، ومن هنا جاء لقبى (الجوهرى) ، ولكن أبـى عندما توفى خلف من ورائه تسعة أولاد :خمس بنات وأربعة بنين ، وعنـد تقسيم التركة خرجت وأخى الأكبر إبـراهيم بمحل الصيـاغـة ، وكان أخى إبـراهيم هـذا مسرفاً متلافاً فنهبه العمال ، وبعثر هـو ما استطاع بعثرته فى اللعب والعبث ، وعندما مات فى حادثة سكة حديد لم يخلف لى شيئاً يذكر ، كان محل الصياغة قد ضاع كل ماكان فيه ، ولولا أن أحد مساعدى أبى ، وهو الأسطى توفيق ، قد رق لحالى واشترى منى المحل وبقية ماكان فيه (بـ ٣٠٠ جنيه إنجليزى ذهب) لما وجدت لقمة عيش .

وكنت أسكن آنذاك فى بيت العائلة ، وكان بيتاً فسيحاً من ثلاثة

أدوار ، وكـان عدد الخدم فيـه سبعة ، فألقيت ذلك كلـه وانتقلت إلى شقـة لا بأس بها مطلـة على شـارع محمـد على ، ولم يبق معى من الخدم إلا جمعـة هذا الـذى بقى معى إلى الآن ، أمـا أم عبد الحميـد فكنت أعطيها خمسين قرشاً فى الشهـر لكى تنظف لى الشقة وتطهو الطعام ، وظلت تقيم فى غـرفة فى حوش بيتنـا القديم ، وكـانت تدفع عشرة قروش إيجاراً للغرفة ، وتقوم بتنظيف حوش البيت والسلالم كل يوم بعشرين قـرشاً فى الشهـر ، وكانت تتغـدى كل يوم فى بيتى وتأخذ معها بقية الطعـام ، فلم تكن هناك ثلاجات وكنت لا أحب أن يبقى شىء من الطعـام فى المطبخ ، فكـانت هى تأخـذ بقية الطعـام وتغسل المطبخ والحمام غسلاً جيداً وتمضى إلى غرفتها .

وبعد مضى ثـلاثة أشهر ، وجـدت أن ماعنـدى من الجنيهات الإنجليزية ينفد بسرعة ، وبدأت أشعر بالقلق على مستقبلى ، وكانت سنى آنذاك أربعاً وعشرين سنة .

وكنت أتسلى بالجلوس فى مقهى صغير فى آخر زقـاق الطاحونة فى المناصرة ، وهنـا أيضاً كان يجلـس طوال النهار تقـريباً حسنين الدمهـوجى الفتوة قبلى ، وكنت ـ قبل أن أعـرفه حق المعرفـة ـ أراه دائماً ممسكاً بفم الشيشة وجالساً على مقعد فى قاع القهوة يحيط به نفر من أتباعه ، وفى ذات يوم أتـوه براقصة سمينة ضـخمة لترقص وتسليه ، وبدأت هذه المسكينة ترقص ، فقال حسنين : اصعدى على المنضدة !!.

وحاولت المسكينة أن تصعد فلم تستطع .

فنظر حسنين إلى رجالـه وقال : أليس فيكم من يستطيع حملها ووضعها فوق المنضدة !!؟.

وحاول واحد منهم ذلك فلم يستطع وتبعه ثان ففشل .

وقال حسنين الـدمهوجى : اخْص عليكم ، أتعجـزون عن حمل هذه الراقصة ووضعها على المنضدة ؟.

فقال له واحد منهم : لا يستطيع ذلك أحد .. جرب أنت .

ونهض هو ووضع رأسه بين سـاقيها ، وحاول أن يهم بها فلم يستطع ، وقال : أعوذ بالله ، كم وزنك ؟ .

ونهضت أنـا ونظـرت إليهـا وقلت لها : ضعى ذراعيك حـول رقبتى ، ففعلت ، ثم حملت سـاقيها وبقيـة جسدهـا ووضعتها على المنضدة .

وشـــــعرت المسكينة بخـوف عظيم ، فقـد كـانت المنضـدة ضعيفـة لا تستطيـع حملهـا ، فنهضتُ وحملتهـا ووضعتهـا على الأرض وأعطيتها عشرين قرشا ، وقلت لها : روحى بيتك ياست ! .

ونظر حسنين إلى وقال : يبدو أنك قوى جدًّا .

ـ نحمد ربنا يامعلم .

وبعد لحظـات طلب لى شاياً والتفت إلىّ وقـال : وماذا تعمل .. ؟

ألست أنت الجوهرى ؟ .

ـ نعم . أنا هـو ، ولكن المحل راحت عليه ، أخى أضاع كل شىء وأنا الآن على فيض الكريم .

ـ إذن لماذا لاتعمل معنا ؟ .

ـ وماذا تعملون .. ؟

وقـال واحـد من الجـالسين : ألا تعـرف المعـلم حسنين الدمهوجى !!.

فقلت على العين والراس ، ولكن ماذا أعمل معكم ؟ .

فنظر إلى المعلم وقال : تفعل ماأقول لك .

ـ معـذرة فهذا عمل شاق لا أستطيعه ، أنتم كل ليلـة فى واقعة وأنا رجل مسالم ولا أحب الخناقات .

قال المعلم : لا .. أنت ستعمل معنا فى الفتـونة ، لأنك رجل قوى وشجـاع ، بعـد غـد سيكون هنـاك فـرح فى حـارة العنبـة ، ونحن سنـذهب ونضرب الـزفة إلا إذا دفعـوا لنـا خمسين جنيهـاً ، وأنت ستقود هذه الحملة وستأخذ عشرين جنيهاً من الخمسين وتعطينى الباقى . وبالفعل قمت بهذه العملية وأخذت عشرين جنيهاً .

وانقطعت عن جماعة المعلم الدمهوجى بعد أن قمت بمهمة فرح المعلم زناتى ، واسترحت لذلك وأحسست أنه من المخجل أن يحصل الإنسـان على المال بتلك الطـريقـة التـى هى فى الحقيقـة نـوع من

البلطجة واللصوصية ، ولكن الفلوس فى ذاتها لذيذة ، وخاصة بالنسبة لرجل مثلى لا مورد رزق له ، ولكن جيبى على أى حال ظل عامراً بالمال لمدة أيام ، ومر بى واحد من الصعاليك الذين يعملون مع المعلم حسنين الدمهوجى ، وقال لى : إن المعلم لا يذهب فى الخرجات أبداً لأنه جبان ، ولكنه يختار واحداً يجعله رئيس الجماعة تحت يده ، وكان يرأس الجماعة قبلى شاب جرىء لا يعرف الرحمة وفى إحدى الخرجات قتل رجلاً ، وقبض عليه البوليس ، وحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد ، ولهذا فالمعلم الآن فى حاجة إلى رئيس جديد ، والجماعة عاطلة من أيام ، لأن بقية الجماعة هلافيت ليس فيها واحد يصلح للرياسة أو يجرؤ عليها ، واقترح الرجل علىَّ أن أعود ، ولكنى رفضت لأننى لا أريد أن أدخل السجن بحكم مؤبد ، ثم إننى لم أكن أشعر بأى حب أو احترام للمعلم الدمهوجى .

ولكن الأمور تجرى على ما يقدره الله ، لا على ما نقدره نحن ، فقد زارتنى سيدة محترمة جدا على غير موعد ، وقالت فى كمال ظاهر : إنها فى حاجة إلى معاونتى ، فهى تملك البيت الذى يجاور بيت الدمهوجى ، وهو بيت طيب يدر عليها إلى جانب سكناها قرابة الجنيهات العشرة ، ولكن الرجل ـ أقصد المعلم الدمهوجى ـ طلب الزواج منها ، فلما رفضت ، فرض عليها جزية شهرية قدرها خمسة جنيهات ، وهى لا تريد دفع هذا المبلغ بل هى لا تستطيعه ، وهى الآن تأتينى لكى أعاونها فقد سمعت أننى من رجال الدمهوجى ، وقالت السيدة : إنها فكرت فى أن تعرض الأمر على

ولـديها المتزوجين ، واللـذين يعيشان بعيـداً عنهـا ، ولكنها خـافت عليهما ، ورأت أن تعـرض الأمـر علىَّ ، وتأملتهـا وهى تتحـدث فأعجبت بهيئتها وملابسها وطريقة حديثها ، وأحسست أننى لابد أن أساعدها ، خاصة أن ابنهـا سعيد كان صديقى ، ولكنى لم أهتد إلى الطريقـة التى أساعدهـا بها ، وكنا يـوم أربعاء فقلت لها : ثقى يـاسيدتـى أننى لن أتخلى عنك ولكننى فى الحقيقـة لا أعرف مـاذا سأعمل ، ورجوتها أن تنظرنى إلى يوم الأحد .

صباح الجمعة مرّ بى فى بيتى أحد هلافيت الدمهوجى ، واسمه رجب العصفورى ، وقال لى وهو يشرب القهوة : تصلى معى الجمعة يامعلم ، أريد أن أتحدث إليك فى أمر مهم ، أى والله يامعلم جوهرى ، وصدقنى لقد فكرت طويلاً قبل أن آتى إليك ..

ـ يبدو أنه أمر مهم فعلاً !!.

ـ إى والله .

ـ إذن نتوضأ ونصلى الجمعة ثم نتحدث .

ـ أريد أن نكون بعيدين عـن هنا ، مارأيك فى الصلاة فى مسجد السيدة نفيسة ؟ .

ـ كما تريد .

وبعـد أن صلينا الجمعـة قلت لـه : سنشترى كبابـاً من محل أعرفه ثم نذهب للأكل فى بيتى .

قال : كما تريد .

واشتريت الكباب ، وذهبنا إلى بيتى ، أما أنا فأكلت الطاجن الذى تعودت أن آكله كل يوم من يد أم عبد الحميد ، إنه طاجن أم عبد الحميد المشهور ، بل مشهور فى القاهرة كلها ، وكل الناس يقولون : إنه سبب مرضك .. ربما ولكن صدقنى إنه كان ألذ شىء فى الدنيا !.

المهم ذهبنا إلى بيتى وأكلت الطاجن ونمت تاركاً رجب العصفورى وأم عبد الحميد يأكلان ، وبعد أن صحوت شربنا الشاى ، واقترب الرجل منى وقال : أستحلفك بالله ألا تقول هذا السر لأحد ، إنهم يدبرون قتل الست جليلة أم زيدان جارة المعلم الدمهوجى .

ـ من هم الذين يدبرون ؟ ..

ـ المعلم دمهوجى ومحمود النطاط .

قلت : أظن أننى أعرف هذه السيدة ، ولكن لماذا يريدون قتلها؟.

قال : لأن المعلم يريد أن ينتقم منها ويحصل على بيتها ، لقد عرض عليها الزواج أكثر من مرة ولكنها رفضت .

فسكتُّ قليلاً حتى أتتنى أم عبد الحميد بالشيشة وقلت : الذى أعرفه أنه ليس فى حرفتكم هذه قتل ، فيها ضرب وسلب ونهب وبلطجة ، ولكننى ما ظننت أنكم تعرفون القتل ؟.

ـ إنـه واحد ، واحد فقط فى شلتنـا يقترف هذه الجنايـة وهو : محمـود النطـاط ، لى عشـرون سنة فى هذه الصنعة السوداء ، ما عرفت من يجرؤ على الـدم إلا هذا الملعون ، حكوا لى كثيراً ولكنى رأيتـه يقتل بعينى هذه ، رأيتـه يقتل المعلم سليمان عفيفى ، وكـان فتوة صغيراً على بـاب الله ، ولكن المعلم خاف منه لأنه بـدأ ينظر إلى العلالى فنـادانا المعلم وأمرنـا بأن نهجم عليه وجماعتـه فى مقهاهم قرب الباب الأخضر ، ولم يكن المعلم يريـد أن نقتله ، أنا أعرف ذلك ، ولكن عندما اشتدت المعركـة بيننا وبينهم فوجئت بمحمود النطاط ، يضرب المعلم سليمان عفيفى بقطعة حديد فى مـؤخرة رأسه والرجل خر ساكتاً ، وتفرق أتباعه وملكنى الرعب فتخشبت مكانى ، وتقدم محمود ودس يده فى عب الرجل وأخرج كيس نقوده ونظر إلىَّ وقال : مالك تخشبت ؟ .

ـ غصباً عنى يامحمود ، إن القتل شىء فظيع ..

ـ المهم أنك لم تر شيئاً وإلا فأنت تعرف المصير .

ـ لا تخف يامحمود ..

ـ وهذه الحكـاية لم يعرف خبرها إلا المعلم الـدمهوجى ، وأنت ثانى إنسان يعرفها.

ـ ولماذا أبلغتنى ؟..

ـ أقـول لك الحق .. لقـد خفت على الست جليلـة ، إنها ست

عظيمة جـدًا يامعلم خليل ، وأقول لك الحق إننى لست خائفـاً عليها من المعلم حسنين الدمهوجى بل من محمود النطاط.

ففكرتُ قليلاً ثم قلتُ له : هل تظن أن المعلم الدمهوجى يعارض فى عودتى إليكم ؟..

ـــ إنه يتمنى ذلك ..

ـ إن كنت متأكداً من ذلك فقل له إننى سأمر عليه فى القهوة بعد ظهر غد السبت .

ووجدت المعلم الدمهوجى فى انتظارى فى الموعد ، وطلب لى قهوة وشيشة وتصـالحنا ، وقال لى : قلت لك إنك لن تعـرف السعادة إلا معنا ، مَنْ فى الدنيا يرفض خمسين جنيهاً فى الشهر ؟!!.

ـ ولكـــن حياتكم كلها نكد ، كلها ضرب وخناق وسرقة .

ـــ وهل تتصور أنا نتخانق لوجه الله ؟ هل هناك مَنْ يجرؤ على أن يثبت لنا ؟ بمجرد أن نظهر يهرب الناس أمـامنا ، أو يدفعون لنا ما نطلب ، وسكت لحظـات حتى أتى خادم القهوة بالشـاى ، فناوله حسنين لى وقال : اسمع يا .. على فكرة ما اسمك ؟ إبراهيم ؟.

ـ لا ، إبراهيم كان أخى أما أنا فاسمى خليل .

ـ عاشت الأسامى ، اسمع يـامعلم خليل ، أنت طويل وعريض وقوى ، وإذا انضممت إلى جماعتى زادت هيـــبتها . وصدقنى أننا لا ندخـل خناقات ، لأن النـاس تخاف منَّا ، وأنت إذا انضممـت لنا

زادت هيبتنا كما قلت ، وزادت أرباحنا ، وكل ما ستعمله هو ما آمرك به ، وسأعطيك فى الشهر راتباً قدره خمسون جنيهاً ، أضعها فى يدك وفى كل ليلة ستربح عشرة جنيهات وهكذا ، وهذا ضعف ما يأخذه بقية أفراد الجماعة ، أقصد هؤلاء الهلافيت .. وأشار إلى مساعديه .

وفكرت قليلاً فوجدت أننى إذا عملت مع هذا الرجل ، انتقلت من حال إلى حال ، ومادامو لا يدخلون خناقات ، فإننى لن أجد نفسى فى مشاكل مع البوليس .

ولكننى سألته : والبوليس ؟ ماذا تعملون مع البوليس ؟.

ـ لاشىء .. البوليس يتقى شرنا ، ثم إننا لا نفعل ما يغضبه ، سترى أن عملنا كله خير وحلال ، موافق ؟.

ـ موافق ..

ـ هذه الليلة سنكبس قهوة فى شارع فج النور . سيقيمون هناك الليلة حفلة لرجل خرج من السجن ، ونحن سنهاجم المقهى ، ونخرج بمبلغ طيب ، اللقاء هنا بعد صلاة العشاء .

وبعد صلاة العشاء كنت فى المقهى ، لم أجد حسنين الدمهوجى ولكننى وجدت بقية صبيانه ، وقال واحد منهم : المعلم جاءه شغل ، وأنت ستقود الحملة .

ـ هيا بنا .

ومضينا إلى شارع فج النور ، كان المقهى منيراً كأننا فى عز

النهار ، وكان هناك رجل يغنى ، وبمجرد أن اقتربنا تقدم منِّى شاب ـ عرفت فيما بعد أنه ابن الرجل الذى خرج من السجن ـ وقال فى غضب : أنتم رجال حسنين الدمهوجى ؟ .

ـ نعم ..

ـ إذن فلن تحصلوا منى على مليم واحد ، ولو تقدمتم من المقهى كسرنا رقابكم . واقترب منى رجل ضخم حسن المحيا وقال : هذه ليلة فرح ، فلماذا لا تشاركوننا فى الفرح ؟.

قلت : نشارككم بكل سرور .

ـ ونحن مستعدون أن ندفع لكم ما تريدون ، بينى وبينك ، أنا أخو المعلم زناتى الذى خرج من السجن صباح اليوم ، وبينى وبينك نحن نريد أن نفرح ونهيص وسندفع لكم ثلاثين جنيهاً .

وصاح ابن المعلم زناتى : لا ، والله لا ندفع مليماً .

وصاح رجل من أتباعى : لا أقل من خمسين جنيهاً .

ولكننى قلت للرجل : شوف يامعلم ، أنت رجل عاقل فيما يبدو لى ، ونحن نريد أن نشارك فى الحفل ، ما رأيك فى أن تزيد المبلغ إلى أربعين جنيهاً ..

وصاح الشاب: ولا مليم ! ..

فنظر إليه الرجل وقال : سأدفعها من جيبى حتى لا تفسد الليلة ، ونظر إلى وقال : ماشى كلامك ، وستتعشون معنا ،

سنخصص لكم ديكاً رومياً ، وهذه هى الأربعون جنيهاً ، واتفضلوا اجلسوا وهيصوا معنا !.

وأخذت المبلغ وأمرت الرجال بالجلوس فجلسوا ، وشاركنا الناس حفلهم ، وتعشينا عشاء فاخراً ، وعند منتصف الليل قمت لأعود إلى بيتى ، وسلمت على الرجال ومضيت ، ولحق بى واحد من رجال المعلم الدمهوجى وقال : هات الأربعين جنيهاً .

ـ لماذا ؟.

ـ لكى أذهب بها إلى المعلم الدمهوجى ، لابد أنه ينتظرنا فى المقهى .

ـ لن أعطيك شيئاً . غداً ألقاه وأعطيه المبلغ .

ـ ولكنه سيظل فى المقهى فى انتظار المبلغ إلى الصباح .

قلت له : إنى لن أعطيك شيئاً ، إن رأسى كالطبلة وأريد أن أنام ، وتركتهم ومضيت إلى بيتى .

فى اليوم التالى بعد صلاة الظهر ذهبت إلى المقهى ، كان المعلم دمهوجى هناك ومبسم النارجيلة فى يده ، فسلمت عليه وقلت : لماذا لم تأت معنا أمس ؟ .

ـ أنا لا أذهب معكم كل مرة ، أنت من الآن ستحل محلى فى الخرجات ، وعلى فكرة لم يعجبنى تصرفك .

ـ يعنى كان لابد أن تضرب وتسيح دماً ؟ .

ـ طبعاً ، إننا فتوات ولا يليق بنا أن نأخذ الفلوس من الناس

كأننا لصوص ، هذه الطريقة ستضيع هيبتنا ..

- على أى حال أنت لم تكن معنا منذ البداية ، والناس كانوا طيبين ، وكانوا يريدون الاحتفال بالمعلم زناتى ، وقد أخذنا الفلوس وسهرنا معهم .

- وتعشيتم « ديك رومى » ..

- وماذا فى ذلك ؟ ..

- فيه أننى تعشيت هنا وحدى طعمية . وبعدين أنا لا أحب أن تمضى الليالى هكذا دون ضرب ...

- إذا كنت تريد الضرب فاذهب بنفسك ..

- ما علينا .. فين الفلوس ؟ .

- هذه هى ..

فأخذها وعدها ثم ناولنى عشرة جنيهات وقال : هذه علشانك ، وأعطى كل واحد من الرجال الخمسة جنيهين ، ووضع الباقى فى جيبه وابتسم وقال : هذه الليلة عندنا زفة ، سنذهب ونعترضها ، ولابد أن نرقص أمامها ونأخذ المعلوم .

قلت : ستأتى معنا ..

قال : لا أظن .

- أى أننى أنا الذى سأقود الخرجة ..

ـــ لا .. سيقودهـا محمـود النطـاط هذا ! أنت ستكـون تحت ريـاسته ... وكما قلت لك سـأعطيك خمسين جنيهـاً فى الشهـر وستأخـذ عن كل خرجـة عشرة جنيهات ، فنظـر إلىّ طويـلاً وقال : عشرون ماشى ! .

فقلت : الحقيقة يامعلم أن شغلتكم مش بطـالة ، ولكن لى شرطاً واحداً ، وهـو أننى إذا عملت معكم فلن أقبل فى الخرجـات رئيساً إلا أنت ، وإذا لم تكن أنت على رأس الخرجة فأنا الرئيس .

ـ مـاشى كلامك .. والآن فـاستمع إلى جيداً فإن وراءنـا الليلة عملية كبيرة .

ـ أى عملية ؟.

ـ عملية بيومى العتر « حتة بتاع كدة » لا طلع ولا نزل ، من حى الخليفة ، وكـان أول الأمر رجلاً ابن حلال ، يكتفى بأشيـاء بسيطة على قده ، ولكن طمعه أخذ يزداد من عامين ، وآن الأوان لكى نطرده من حينـا ، هذا جزء من عملنـا يامعلم خليـل : كل شوية يطلـع لنا عفريت ولابد من القضاء عليه أو طرده .

ـ نطرده لك من هنا يامعلم !!.

ـ الليلة !.

ـ الليلة ! .

ـ الليلة سيكـونون فى مقهاهم فى الزقـاق خلف السوق ، أتحب

أن يخرج معك محمود النطاط ؟ .

ـ النطاط ؟ لم لا ؟ .

ـ يستحسن أن يكون معك ، إنه يعرف الحى وما فيه .

بعد العشاء تعشى الرجال فى مطعم فول خلف السينما ، ثم قصدنا إلى الزقاق وكان معنا محمود النطاط ورجب العصفورى ، كان النطاط سكراناً ، وشرب كأسين آخرين بعد العشاء ، ووجدنا بيومى العتر ورجاله ، ويبدو أنهم فوجئوا بنا ، وقبل أن نجلس تقدم منى بيومى العتر وقال : لا مؤاخذة يامعلم ، لا تستطيعون الجلوس فى هذا المقهى الليلة .

وبدأت المعركة ، والذى أدهشنى أن بيومى العتر هذا كان فى غاية الهيافة ، كان كل ما فيه صوت وجرأة ، ولكنه لم يتحمل منى دفعة واحدة ، ووضع يده فى جيبه لكى يخرج مدية فيما أظن ، وقبل أن يخرجها أمسكت بيده الأخرى ولويتها ليًّا شديداً ، ويخيل إلى أنه صرخ فتركته يمضى ويجلس على كرسى ، وهو لا يكاد يدرى بنفسه من شدة الألم ، والمعركة كانت على أشدها ، عندما رأيت رجب العصفورى يهجم على محمود النطاط من ورائه ويضربه بقطعة من الحديد ، فيقع على الأرض صامتاً ، وفى أقل من ثانيتين كان المقهى ظلاماً وكنا نجرى فى الطريق ، وبعد أن ابتعدنا وقفنا فى خرابة ، وقلت لرجب هامساً : لماذا فعلت ذلك ؟ .

ـ لا مؤاخذة يامعلم لى سنتان ، وأنا أنتظر هذه الفرصة

وصدقنى إننى لو لم أفعل ذلك لقتل الست جليلة ، ثم قال : ستكتم على ، أليس كذلك ؟ ثم قال : على أى حال أنا سأترك هذه الحرفة من الآن ، هـذا الرجل قتل أخـاً لـزوجتى قبل أن يقتل سليمان عفيفى ، والآن انتقمت .. أجل انتقمت ؟ .. ثم أردف يقول : كان قلبى يحترق ولكننى لن أترك الفـرقة إلا بعد شـــهرين أو ثلاثـة وإلا اشتبه فىّ المعلم .

عـدت إلى بيتى تلك الليلة وأنـا لا أصدق بـالسلامـة ، لا أدرى كيف لم يدقق البـوليس فى البحث عن قاتل محمـود النطاط ، ولكن يبدو أن كل النـاس كانـوا يتمنون مـوته حتى المعلم الـدَّمهوجى - عنـدما أبلغتـه الخبر دون أن أذكـر لـه اسم القاتـل بدا على وجهـه الارتياح ، ثم قال لى : طبعاً أنـا لن أعرف أبداً كيف وقع ذلك ، ولكنى لا أريد أن يبقى معنا رجب العصـــفورى .. لا أدرى لماذا ، ولكـنى لا أريده بعد أن ذهب النطاط فى داهية ، عليك أنت أن تطرده .

- أشوف يامعلم ..

- الحقيقـة أن العصفورى كان يكـره محمود النطاط كـراهية عميقة ، لا أدرى لماذا ، حقًّا كنـا كلنا نكره النطاط ، وأنـا أولكم لأنه كـان سكيراً ، وكلنـا نشرب بين الحين والحين ، ولكن الإدمـان فى صنعتنا داء وبيل وخطر ، فنحن نـاس لنا أسرار ، والمدمن إنســان لا يـؤتمن على سر ، ويكفى أن أقول لك إنـه كان يستهين بـالدمـاء

ونحن لا نستهين بالدماء أبداً ، حَقًّا إننا نضرب ونبطح ونسيل الدماء ، ولكننا لا نقتل ، ومحمود كان قاتلاً .

قلت : إذن غار فى داهية .. ألا تظن يامعلم أن البوليس سيتعقبنا بسببه ؟.

ـ لا أظن ، لأن البوليس سيتعقب الآخرين ، أما نحن فيستبعد أن نقتل واحداً منا ..

ـ إذن لماذا لا تريد العصفورى ؟ .

ـ لا أدرى .. كنت لا أحبه وأخشى أنه كان خائفاً .

ـ على أى حال دع هذا لى .

وعندما خلوت بالعصفورى لم أجد نفسى بحاجة إلى أن أقول له أن المعلم لا يريده فقد بدأ هو بقوله : شوف يامعلم جوهرى ، الآن وقد برد قلبى من ناحية النطاط ، فقد آن الأوان أن أترك هذه الصنعة ، أقول لك بحق ، لقد جمعت أثناء العمل فيها عشرين سنة مبلغاً لا بأس به من المال ، وأخى الأكبر كان يملك محل بقالة فى ناحية (الشدية) قرب بنها ، وقد مات عن سن عالية بعد أن علم أولاده وتوظفوا ، ولا يريد أحد منهم أن يعمل فى البقالة فعرضت عليهم أن أشترى المحل ، واشتريته وسأمضى الآن لأتسلمه وليتك تأتى معى .

ـ وهل البقالة أفضل من صنعتنا هذه ؟ .

ـ أى صنعة فى الدنيا خير من صنعتنا هذه ، لقد دخلت السجن أربع مرات وقضيت فيه فوق السنوات الخمس ، وضربت وبطحت وجرحت وها أنا فى النهاية وقعت فى أسوأ ما يقع فيه الإنسان ..

ـ إذن فأنت حزين لأنك فعلت هذا ؟.

ـ وأى حزن يامعلم ، وصدقنى أن الموضوع لو لم يكن مع محمود النطاط لكان أهون على الآن أن أسلم نفسى للبوليس .

ـ لا بأس عليك وأنت لن تسلم نفسك ، وامض الآن إلى قريتك هذه وابدأ حياة جديدة .

ـ سأفعل إن شاء الله ، ولكن لا تنسى أن لك أخاً فى قرية (الشِّدِّية) بنها .

ـ لن أنسى .

وعندما خلوت إلى المعلم الدمهوجى أبلغته بأن العصفورى ذهب إلى حال سبيله ثم قلت : أتعشم أن تكون راضياً عنى يامعلم .

ـ طبعاً يامعلم خليل ، وهل فى هذا كلام ؟ .

ـ إذن فلى إليك رجاء ..

ـ عينى لك يامعلم

ـ الست جليلة ، أم زيدان أقصد .. جارتك !..

ـ ماذا تريد هذه ؟ .

ـ هى لا تريد شيئاً ، ولكنى أنا الذى أريد ..

ـ طلباتك ..

ـ أن ترفع يدك عنها ..

ـ إننى لا آخذ منها إلا خمسة جنيهات فى الشهر ؟ وهى بينى وبينك امرأة موسرة وزوجها ترك لها مالاً كثيراً ، وهذا البيت هو المجاور لبيتى ، وأنا مستعد ألا آخذ منها شيئاً على أن تبيعنى بيتها.

ـ وإذا طلبت منك يامعلم أن تبعد عنها تماما ، إن لها ولدين : زيدان وسعيد ، وسعيد كان يعمل عندى فى محل الصياغة ، وبينى وبينه محبة ومودة ، وهو يملك الآن محل صياغة فى بلده وعندما عرف صلتى بك أتى من بلده وسألنى أن أرجوك أن ترفع يدك عن أمه .

ـ وأنت ، هل لك فيها مزاج ؟ ..

ـ عيب يامعلم هذه السيدة جاوزت الخمسين .

ـ ولكنها حلوة ..

ـ حلوة أو وحشة هذا لايهم يامعلم ، ولكنى ذكرت لك السبب ، ففكر طويلاً وقال : موافق يامعلم خليل والله علشان خاطرك بس .

ـ أشكرك يامعلم وإن شاء الله أردها عليك أضعافاً .

وعندمـا أبلغت الست جليلة فرحت فـرحاً بالغـاً ، وعرضت على ثلاثين جنيهـاً فرفضت ، ولكنها عندمـا علمت أننى آكل الطاجن كل يوم صنعت لى طـاجناً عجيباً يفتح النفس من بعيـد ، وتعلمت منها عمله أم عبـد الحميد ، ولم أكن أعلم يوم ذلك أن إدمان هـذا الطاجن سيكون سبب بلوتى كلها .

(وهذا الطاجن كان يتكون من رطلين من اللحم الضانى تطقع قطعـاً صغيرة وتـوضع فى الطـاجن مـع رطل من السمن البلـدى ، وبطاطس ، وكوسة ، وأى خضار مع كمية هائلة من الملح ، والفلفل ثم يقفل الطاجن ويـوضع فى الفرن من العاشرة صباحـاً إلى الثانية بعـد الظهـر) فأعـود إلى البيت وآكل الطـاجن كلـه ، ثم أنهض إلى الفـراش وأنام إلى السـابعة أو الثـامنة مسـاء ، ثم أنهض وأستحم والسعـادة تبـدو على وجهى ثم أبـدأ شرب الشيشـة والكـلام مع أصحابى ، وظللت أعمل ذلك فوق العشرين سنة .

لم أكن أتصـور أن القتل يمكن أن يـرج المجتمع هـذه الـرجـة العنيفة ، فقـد تغيرت الدنيـا من حولى ، وأصبحت مـن شخصيات الحى الكبيرة لمجرد أن الناس عرفوا أن الجماعة التى أعمل فيها من الممكن أن تقتل ، وقـد عـرفت مـع الـزمن أن الشعب المصرى شعب طيب جدًّا ومسالم جدا ، وأن جريمة القتل تفـزعه فزعاً شديداً ، حقًّا كان الناس كلهم يعرفون أننى لست القاتل ، وأن القاتل هو محمود النطاط ، ولكننى كنت رئيس النطـاط ، ولقد فـرح الناس كلهم لموت

محمود النطاط ، وحزن النـاس جميعاً على سليمان العفيفى مع أنه كان معروفاً بأنه مجرم كبير ، ولكن عندما وقع قتيلاً ، حزن الناس عليه ونسوا أعماله البشعة ، ولم يعـودوا يذكرون إلا أعماله الطيبة القليلـة ، ومنها أنـه كان يعتمـر مـرة كل سنتين ، وكان يقـول : إن الإنسان يستطيع أن يرتكب أشنع الجرائم ، فإذا حج أو اعتمر غفر الله له كل شىء ، وكان الكثيرون من الخلق يـرون هذا الرأى ، وعبثاً تحاول أن تقنعهم بأن هـذا خطأ ، ولكننا ـ كما قلت ـ شعب طيب جـدًّا ، وسـاذج بصـورة يصعب تصـورهـا ، وهـذه الطيبـة وتلك السذاجة هما سبب ضحكه الدائم ، فهذا شعب يضحك طوال الوقت ويضحك لأقل نكتـه وأتفـه منـاسبـة ، ولهذا فنـادراً مـا يصـاب المصريون بأمراض عصبية .

***

كان أول من قصدنى ورجانى أن أجتهد فى أن أكون فتوة مكان حسنين الدمهوجى جماعة شارع الصاغة فى حى خان الخليلى ، وقد قالوا لى : إن الدمهوجى رجل نذل وجبان وجشع ، وأنه كان يهددهم دائماً بالنهب والعدوان ، ويجمع منهم أموالاً طـائلة وقالوا لى : إنهم مستعدون لأن يـدفعوا لى مائة جنيـه فى الشهر خالصـة لى ، ومائة لكى أوزعها على رجالى إذا أنا خلصتهم من هذا الشرير .

وقـد كنت حـريصـاً جـدًّا فى الكـلام معهم ، فمن يـدرى فلعل حسنين الدمهـوجى هو الـذى أرسل بعضـهم ، ولكنى اتفقت معهم

على أن آخـذ منهم خمسين جنيهاً فى الشهـر ، وأتـولى حمايتهم من الدمهـوجى ، وكانـت هذه الخمسـون جنيهاً مبلغاً طـائلاً من المال آنذاك ، فاستأجرت طاهياً وسفرجيًا وخادمة ، وعشت عيشة ملوك ، وكان الطـاهى يعد لى الطـاجن كل يوم وكنت آكلـه بنهم ، ثم أنبطح على السرير إلى الساعة السـادسة ، ثم أنهض فأصلى العصر وأخرج فأصلى المغرب فى الجامع ، وقد كـان ذلك ـ أصارحك ـ نفـاقاً ، فقد كنت قليل الإيمان ، وكانت هنـاك سيدة تسمى كـوكب ، كانت أخت السيدة جليلـة أم زيدان ، وكانت امـرأة فى أوائل الثلاثينـات وكانت عاقراً ، ولهذا فقـد تزوجت منها ، وهذه المرأة تـزوجت وطلقت ثلاث مرات دون فائدة ، وكانت امرأة حلوة ولطيفة وأظن أنها كانت قليلة العقل ، فقد كـانت خفيفة شخلوعـة وأنيقة ، ولكنهـا كانت تضحك طوال الـوقت ، وكانت تـرقص رقصاً بلديـاً جميلاً ، وكـانت أختها ترسلهـا لى بين الحين والحين بالطـاجن الذى كـانت تعده بطـريقة عجيبة ، فقد كـانت العطارة التى فيه مع الفلفل والقـرفة والزعتر إلى جانـب السمن البلدى ودهن لحم الخروف تجعلـه أشبه بـالمخدر ، ولم يقل وزن اللحم فيـــه عن رطلين أبـداً فكنت آكـل ثم أغتسل ثم أنبطح وأنام ، بينما كانت كوكب تتولى غسل المواعين وتدير الخدم ، تزوجتها ورأيت معها عزًّا كثيراً جداً ، فقـد كانت إلى جانب فضائلها التى ذكـــرتها تحبنى وعـــرفت من أختهـــا أن سنهـــا لا يصل إلى الخامســة والثلاثين ، ومـادامت أختها جليلـة تلح علىَّ دائماً فى أن أتزوجها ، وكانت تقول لى : إنها ستعقل إذا أنا تزوجتها فقد وافقت

فى النهاية وتزوجتها وأختها جليلة أم زيدان هى التى تكفلت بالفرح وكل تكاليفه ، وقد سعدنا بذلك ليلة عظيمة ، ومن الغريب أننى بعد أن تزوجتها حملت منى مع أن سنها كانت تقارب الأربعين ، وقد فرحت أختها جليلة بذلك فرحاً عظيماً ، وولدت غلاماً لطيفاً سميناه إبراهيم على اسم والدها ووالد جليلة ، وقد عقلت « كوكب » بعد الزواج والخلفة ، وأقلعت عن أعمال الخفة والرقص وأصبح الولد هو سعادتها فى الدنيا ، وقد أخذته إلى بيت أختها جليلة وقالت : إن بيتى ملىء برجال أشرار ، وهى لا تأمن على ابنها معهم ، وكانت على حق ، وقد استرحت من هذه الناحية .

وكنا مستمرين فى أعمال الفتونة ، فكنت كل يوم بعد صلاة المغرب أذهب إلى المقهى الصغير الذى يجلس فيه حسنين الدمهوجى ، وكنت أجده كل يوم فى نفس المنظر قابعاً وراء ترابيزة فى المقهى ، ومبسم الشيشة فى يده ، وكان هو الذى يرسم لنا الخطط ويحدد لنا الخرجة كل ليلة ، وكنت أطيعه بعد أن أصبحت شخصية عظيمة بفضله .

كنت طويلاً ثقيل الوزن ، وكنا نهدد المحلات بالهجوم ونطلب مالاً ، وفى الغالب كانوا يساومونا . ثم يدفعون لنا شيئاً لابأس به : مابين ثلاثين جنيهاً وستين جنيهاً وكانوا يعطوننى إياها ، فكنت أضعها فى جيبى وأكمل سهرتى ، ثم أعود إلى بيتى فأنام كالعجل إلى قرابة الظهر ، ثم أنهض فأذهب إلى المقهى وأقابل الدمهوجى وأعطيه

المال فيأخذه ، ثم يعطيني منه عشرة جنيهات ويرسم لي خطة الليلة وهي في الغالب تهديد أفراح ، ونادراً ماكان الناس يتجرءون على نزالنا فكنا نتفق معهم ، ولكننا في ذات ليلة اختلفنا مع أهل الفرح اختلافاً شديداً ، وكان حفل زواج ابن المعلم (حمدان أبو كرشه) وكان متعهد فواكه ، وكان غنيًّا ورجاله عشرات بل مئات ، وكان معي خمسة رجال على رأسهم (شهاب أبو زكريا) ، وهو بلطجي شجاع اخترته وضممته لنا ، وكان طائشاً وسكيراً ، ولكنه كان شجاعاً كالأسد ، فلما وصلنا إلى فرح المعلم (حمدان أبو كرشه) وجدنا شيئاً هائلاً حقًّا ، فقد كانت الأضواء تتلألأ ، وتخطف الأبصار .

وكان المدعوون مئات والدنيا هيصة ، وعندما أقبلنا تقدم إلينا رجل طوله متران يسمى يعقوب الزنط ، كان كبير رجال المعلم حمدان ، وقال : إنه لن يسمح لنا أن نتعشى ونشارك في السهرة ، وعز على أن يواجهني يعقوب الزنط بهذا التهديد أمام الناس والعصا بيده ، وكان (شهاب أبو زكريا) سكران ، فما دريت إلا وهو يضرب يعقوب الزنط بالعصا على رأسه ، ويجرحه جرحاً كبيراً ، ووقع الرجل على الأرض وبدأت المعركة ، وكانت حامية جدًّا ، بدأت بتحطيم الأنوار ، والكابلات ثم اشترك الناس كلهم في المعركة ، وسالت الدماء ، ولا تتصور بشاعة هذه المعركة ، ولكننا خربنا الشارع وهزمناهم ونهب الرجال الذين كانوا معي أموال الناس ، ومصاغ النسوان ، وأخذنا شيئاً هائلاً ، ولم تنته المعركة إلا حوالى

نصف الليل ، فعدت بالمغانم الكثيرة إلى بيتى ، وكنت قد أصبت بجرح كبير فى أعلى ظهرى ، ولم أستطع النوم وكان لابد أن أذهب مع (شهاب أبو زكريا) إلى قصر العينى ، وهناك زعمنا أن سيارة دهمتنى ، فأجروا لى عملية واسترحت ونمت ، ونام معى هناك (شهاب أبو زكريا) .

وفى اليوم التالى أتى رجال البوليس ، وقالوا : إنهم فتشوا بيتى وأخذوا المغانم وأنهم يحيلوننى مع (شهاب أبو زكريا) واثنين آخرين إلى النيابة ، والنيابة طلبت حبسنا خمس سنوات وكانت قضية طويلة ، انتهت بالحكم على بالسجن ثلاث سنوات ، وكانت تلك أول مرة أدخل فيها السجن .

***

وأنت لا تعرف معنى السجن فى تلك الأيام ، كان أحسن من السجن فى أيامنا هذه ألف مرة ، سجنونى فى سجن طره ، وكان مديره إنجليزياً يسمى الميجر رودنى ، وكان رجلاً عاقلاً جدًا ، وحازماً جدًا ، وعادلاً ونظيفاً جدًا.

والنظافة عند هؤلاء الناس كانت نظافة حقيقية ، لا مجرد كلام كما هو الحال اليوم . فكانت الغرف آية فى النظافة وكذلك الزنزانات أما دورات المياه فكانت تحفة ، كانت تلمع وتبرق ، وكان يشرف عليها صول إنجليزى ، وكانت عقوبته للعساكر المهملين فى النظافة هى الجلد ، وصدقنى أن خمس جلدات كفيلة بأن تؤدب الشيطان ،

وكانوا يجلدون بسيور من الجلد ، فيكتفون المحكوم عليه بالجلد ، ويخلعون ملابسه التحتية ويجلدونه على مؤخرته بكل عنف ، وبعد الجلدات الخمس كان الطبيب يفتح جروحاً فى موضع الجلد ، ليخرج الدم الميت ويجف ، وكان الرجل يستغيث ويصرخ ، ولكن أحداً كان لايرق له ، وبعضهم كان يموت من الجلد ، ولكن الميجر رودنى كان يقول : إن القانون فى إنجلترا لا يعاقب الجلاد فى هذه الحالة ولا يحقق معه ، لأن هذه عقوبة ، ومن يريد أن يتحاشاها يستطيع ذلك ، ومادام قد أجرم فلابد من عقابه .

وكان الناس يرهبون الجلد رهبة شديدة ، ولا أذكر أن إنساناً جلد ثم عاد إلى الجريمة ، وأنا شخصيًّا خفت من الجلد جدًّا ، وسرت على العجين لا ألخبطه ، وكنت مطواعاً جدًّا فى السجن وأحبنى الميجر رودنى لأننى كنت لا أدخل فى سخافات المسجونين الآخرين ومشاجراتهم ، وكنت قوياً جداً . فكان الميجر يحبنى ويدخرنى فكان الميجر يدخرنى لكبار الأعمال ، وكنت أشبه بحارس له ، فكنت آكل من أكله وهذا الأكل لم يكن له طعم ، ولكنه شفانى من الطاجن طوال مدة السجن ، وقد تحسنت صحتى .

كان المساجين يخافوننى ولا يجرؤ إنسان منهم على المساس بى لأننى كنت أضرب ، وياويل من كنت أضربه ، كنت أفتت عظامه وكان ضربى لهؤلاء المجرمين أليماً جدًّا ، ولكننى نادراً ما كنت أجرح أو أبطح أو أكسر ذراعه وكنت أرفع الرجل وأهبده على الأرض

هبدة يظل راقداً بعدها أسبوعاً ، وكنا نعمل فى الجبل ونكسر الزلط ، وكنت أعمل بعشرة من الآخرين ، وكان الميجر إذا سمع بأن أحداً من السجناء يتكاسل يسلطنى عليه ، فآمره بالعمل فإذا قاوم ضربته قلماً ، أعوج به رقبته شهراً ، وكان هناك سجين عامل فتوة فتحديته ، واتفقنا على أن نتضارب وسط الزملاء ، ولا يتدخل أحد ، وإذا أراد أن يستعين بعصا أو مدية فليقل لى لكى أتسلح بمثلها ، وهذا الرجل وقف أمامى كالديك والناس من حولنا ، وبدأنا المضاربة ، وأراد أن يهوشنى فحاول أن يضربنى برأسه فانكسرت رأسه ، ثم ضربته قلماً على قفاه ، فانكفأ على الأرض ولكنه لم يلبث أن وقف وأصابتنى منه ضربات موجعة ، ولكنى فى النهاية تمكنت منه ، وضربته فى بطنه ضربة وقع على أثرها على الأرض ، وجعل يتنفس بصعوبة ، كأنه يموت وأسعفه الطبيب ، ولكنه أصبح يخافنى كأننى سبع . وكذلك خافنى كل المساجين والعساكر وأصبحت ملك السجن ، وقد قبضت على سجين كان يتاجر بالمخدرات سرًّا فى السجن ولا حظت أنه يتصرف تصرفاً شريراً كان يتصرف تصرف من يخفى سرًّا ، فرقبته ، واكتشفت مسألة المخدرات ، وهنا عاقبه الميجر رودنى بالجلد ست جلدات ، مات فيها وذهب فى داهية ، ونظراً لحسن أخلاقى فقد أصبحت السنوات الثلاث سنتين ، وخرجت من السجن أحسن ألف مرة مما دخلته .

وكنت قد صممت على أن أترك الفتونة ، ولكننى عندما خرجت وجدت أتباعى ورجال الحى على باب السجن ، واحتفلوا بى

بالـرقص والغناء كأننى بطل ، فعدت إلى الفتونـة من تلقاء نفسى ، لأن الناس سئموا الدمهوجى وكانوا يريدوننى .

ولكننى مع الأسف الشـديـد ، عرفت أن ابنى إبـراهيم مـات ، جاءته حمى ومات ، وكذلك ماتت أمه كوكب ، وقد حزنت عليها جدًّا لأنها كانت بنت حـلال ، وقد حلت محلهـا أختها جليلـة أم زيدان ، وأظن أن هذه المرأة كـانت تحبنى ، وكانـت فى الخامسة والخمسين من عمرهـا ، ولكنها كانت جميلة وسمينة وغنيـة ، وقد أدارت بيتى بكل مهارة وأنفقت من مالها الكثير ، ولكنى عـدت إلى الطاجن وهذا أسوأ مافى الموضوع .

ولكن علاقاتى بحسنين الدمهوجى قـد ساءت جدًّا ، فقد كرهه الناس كرهاً شـديداً ، وكان قد طرد الرجـال الذين تعودنا أن نعمل معهم ، وأتى برجـال سفلة أوغاداً ، فطردتهم كلهم ، وأتيت بـرجال كالأسـود ، وصدقنى أننى لم أكن أفكـر فى إخراج الـدمهوجى من الفتونة ، ولكنه هو الذى أخرج نفسه بسوء أفعاله .

لم يكن لى يد فى مقتل سليمان عفيفى أو محمـود النطاط ، والله وحـده يعلم أن هـذا الأخير كان يثير نفسى ، ومجرد رؤيتـه كـانت تملؤنى غضباً ، ولكنى كنت أكتم عواطفى وكانت الصفة الأساسية فى هذا التعيس أنه كان غبيًّا جـدًّا ، وغباؤه هذا كان يعطيه جموداً فى الـوجه ، وبـلادة فى العينين تخيفـان معظم الناس ، وكـان حسنين الدمهوجى الفتـوة يستغله استغلالاً سيئاً ، ويخيـف بـه النـاس ،

ولا أدرى إن كان هذا الرجل قد قتل العشرات كما يقال ولكنى تبينت أن معظم هذه الأقوال كلها كانت شائعات وأوهاما .

وبعد موته كانت الرغبة فى التخلص من (شهاب أبو زكريا) تملأ نفسى ، وخاصة بعد مقتل النطاط لأن شهاباً هذا كان أغبى وأبغض إلى النفس من محمود النطاط ، وبعد مقتل النطاط بدأ حسنين الدمهوجى يعد (شهاب أبو زكريا) لإرهاب الناس ، ولهذا فقد قررت فى نفسى أن أتخلص منه .

ولكن الذى أثار دهشتى وأوقفنى عن التصرف ، هو أن مصرع هذا الإنسان البغيض أقصد محمود النطاط ـ زاد من قدرى عند الناس ، كأنهم ظنوا أن لى يداً فى مقتله ، وقد زارنى كبار تجار الصاغة ، وخان الخليلى ، والنحاسين ، والغورية ووجوههم طافحة بالبشر وروح المودة وهؤلاء الناس كانوا بالفعل محترمين جدًا ، ومن عادتهم إذا زاروك أن يتركوا لك هدية قيمة ـ من الذهب فى الغالب ـ ومعها مال ، وكانوا مستعدين للزيادة ، وقد أحصيت ما تجمع لى من مال فى بحر أسبوع فزاد قليلاً على أربعمائة جنيه ، فإذا أضفت إلى ذلك الهدايا ، رأيت أننى أصبحت بالفعل رجلاً غنياً فى نظر نفسى على الأقل .

ولكن الصفة الأساسية التى كان عمال الفتونة ينتظرونه من رجل مثلى هو الكرم ، كان لابد أن أعطى كل واحد من مساعدى جزءاً من المال الذى يصيبه ولكن هذا لم يكن كافياً ، فقد كان لابد أن

أعطى كل واحد منهم شيئاً من جيبى ، وكنت أكره (شهاب أبو زكريا) لأنه كان إنساناً بغيضاً طماعاً ، ولم يكن محمود النطاط أحسن حالاً من شهاب زكريا ولكن الناس جميعاً فرحوا لموت النطاط ، وكنا جميعاً نعرف أن (شهاب أبو زكريا) هو الذى قتل النطاط ، ولكن أحداً لم يقل شيئاً خوفاً منه ، فقد كان مجرماً حقيقيًا ، وأعتقد كذلك أن حسنين الدمهوجى كان يكرهه ويخاف منه ، وأنه مسرور لموته ، وربما ظن أن لى يداً فى موته خاصة وقد زاد مالى كما قلت ، وأحس بذلك الفتوة الدمهوجى ولأول مرة رأيته بعد مقتل النطاط ، قرأت فى وجهه جموداً وتعالياً صامتاً وقال : صدقنى أننى استرحت لموت محمود النطاط ، كان يسبب لى متاعب كثيرة ... وأنت ؟ ! .

ـ لم أعرفه معرفة كافية ولكن الحق أننى لم أحبه قط ، وإذا أردت الحق قلت : إننى لم أكرهه كذلك ، وإذا كنت أنت مستريحاً لاختفائه ، فنحن إذن لم نخسر شيئاً .

ـ وأظن أنه كان جاسوساً للبوليس ، ولكن دعنا من أمره فقد راح فى داهية ولدينا سيد سيده .

ـ من تقصد ؟.

ـ كثيرين (شهاب أبو زكريا) مثلاً ، المهم أننا مازلنا كما نحن ونريد الآن أن نضرب ضربة جامدة ، فأنا محتاج لنقود لأن بنتى ـ عقبال عندك ـ ستتزوج الأسبوع القادم ، ولن تنفعنى إلا خبطة فى

الصاغة ، والبركة فيك .

ـ ولماذا تضرب أولئك الناس أو تؤذيهم ، ألا يمكن التفاهم معهم بالذوق والإنسانية ؟ .

ـ دى تبقى شحاته بقى ، واحنا فتوات !! .

ـ لكن يامعلم الدنيا تغيرت والبلد فيه ثورة ، والبلد فيه سيد جديد ، هو سعد زغلول والناس كلهم معه .

ـ سيبك منه ، كل ده كلام فارغ ، زيه زى عرابى وغيره . البلد ده مافيهوش غير الإنجليز همه دول القوة والخير والبركة .

ـ خير وبركة ازاى يامعلم . دول أعداء البلد ، ونحن مصريون مثل غيرنا ، ولابد أن نكون مع الوفد وسعد زغلول .

ـ شوف يامعلم خليل ، لا تضيع نفسك ، نحن فتوات ولا نحترم إلا الإنجليز ، ولن نتحول إلى شحاتين .

ـ مادمت أنت لا تقود الخرجات فدعنى أتصرف بمعرفتى ، وكل ما تريد سيصلك ولا داعى للأذية .

ـ أنت ستضيعنا بذلك ، إننى فى حاجة إلى ألف جنيه على الأقل .

ـ دعنى أتصرف بمعرفتى يامعلم .

ـ شوف ، عندك شهاب أبو زكريا ، إنه سيأتى الآن وستتفقان أمامى .

أنا لا أعـرف إلا أنت يامعلم ، وأرجو ألا تهبـط بى إلى مســـتوى أبو زكريا) .

ـ إنه الآن ذراعى اليمنى .

ـ أنا ذراعـــك اليمنى يامعـــلم ، ودعنى أتصرف أرجوك .

واستمرت المناقشة بينى وبينه دون فائدة ، فقد كان فى الحقيقة لصًّا جامد القلب ، يريد أن ينهب الناس بالإرهاب ، وهو قابع فى ذلك المقهى الحقير والشيشة فى يده .

وأتى أبو زكـريا وانضـم إلى المعلم حسنين طبعاً وقـال : شوف يامعلم خليل ، شغلتنا دى شغلة شطـارة وجدعنة ورجولية ، وإذا لم تكن أنت مستعدا لقيادة الخرجات فدعنا نحن نشوف شغلنا .

ـــ كده ؟ صـدقنى لا مانع عنـدى ، ولكن لابد أن يعلم النـاس جميعاً أننى تركت شلتكم .

فقال المعلم حسنين : اطمئن من هذه النـاحية ، أنا سأقول ذلك للناس كلهم وسأعرف كيف أعود بك إلى الفقر الذى نسيته ..

ـ لا لزوم لهذا الكلام يامعلم ..

ـ لا .. لـه ألف لزوم ، لأن الـواحد منكم يأتينى متسـولاً ، فإذا جرى المال فى يديه نسى أصله ونسى فضلنا عليه. .

ورأيت أن خير مـاأفعله هـو أن أتـركه وأمضى ، فإن المسألـة أصبحت مسألة قلة أدب ، وبالفعـل تركته ، ومضيت إلى بيتى ، وقد

عولت على ألا تكون لى به أو بالفتونة علاقة ، وكان عندى من المال ما يمكننى من فتح محل صغير ، وكان للست جليلة أم زيدان قريب عطار وكان يقول لى : إن العطارة تكسب الذهب ، وأنه فى خدمتى إذا أنا شئت أن أدخل ميدان العطارة ، فاستقر رأيى على أن أتكلم مع الست جليلة بعد أن أصحو من نومة الظهر لأنظر فى هذا الأمر قبل أن تضيع الفلوس .

وأكلت الأكلة إياها ونمت إلى حوالى السادسة والنصف ، ولم أكد أكمل استعدادى للخروج والمرور على الحلاق ، حتى أتانى عسكرى بوليس وقال لى :إن سعادة المأمور الجديد يريدنى فى الحال ، وذهبت وقابلته ، وكان رجلاً جميلاً محترماً طويلاً عريضاً ، وقد استقبلنى فى ملابسه الرسمية استقبالاً طيباً وقدم لى سيجارة وقال : شوف يامعلم خليل ، لابد أنك تعرف أننى جديد هنا ، وأنا لا أحب الفتونة ولا أريدها ، وأعتقد أنها لابد أن تختفى ، لقد ناديت حسنين الدمهوجى وتكلمت معه ، ووعدنى بأن يقلع عن هذا العمل ، ولكنه قال لى : إنك رئيس العمليات عنده وأننى لابد أن أتكلم معك .

ـ ومتى رأيته ياسيدى القائمقام ؟ ..

ـ أمس ، ولم يعجبنى فيه شىء ، ويبدو أننى لابد أن أمسح به الأرض ، إن الدنيا تتغير ، وأيام الإنجليز انتهت ، والبلد فيه اليوم بوليس محترم .

قلت : أنا أدرك كل هذا ياسيدى القائمقام ، وأنا متفق معك على

كل شيء ، وصدقني عندما أقول لك : إنني قررت قبل أن أزورك بمدة أن أترك هذه الحرفة ، وأدخل في عمل جديد ترضى عنه ، ثم إنني لم أقض في هذا العمل مدة طويلة ولم يعجبني أبداً ، خاصة أن فيه أناساً مثل حسنين الدمهوجي .

ـ هذا كله متوقف عليك ، وسأقول لك ماقلته له بالأمس : أنا رجل لا صبر لي على أشياء غريبة مثل الفتونة ، ولابد أن أخلص منها وسأعرف كيف ، كما قلت لك : البلد فيه بوليس وحركة وطنية ، وهذا هو أهم شيء الآن .

ـ مني أنا لن ترى ياسيدي إلا كل خير .

ـ أنا متشكر ، والآن تفضل أنت ، فقد قلت لك ماكنت أحب أن أقوله لك هذه المرة مع ألف سلامة ، ومد يده وصافحني وخرجت .

ومررت على الحلاَّق ، لم يكن في ذهني أي شيء هذا الرجل مسح ذهني مسحاً وأثار في نفسي شيئاً من الغيظ ، وذهبت إلى الست جليلة ورحبت بي ترحيباً فياضاً ، وبعد قليل سألتها عن قريبها العطار فقالت : فيم تريده ؟.

قلت : أقول لك الحق ، والكلام هنا بيني وبينك ، لقد فكرت في حرفة أحترفها إلى جانب الفتونة ، لأن الفتونة في ذاتها لن تدوم ، والبلد تتغير والناس تتعلم وفي البلد اليوم فتوة كبير ومحترم يسمى سعد زغلول ، وعلينا كلنا أن نقف معه ضد الإنجليز .

ـ مهما حدث ، فأنا لا أرى أن تنصرف عن الفتونة ، إنها كنز ياعم خليل ، ولا أظن أن البلد يستغنى عنها أبداً .

ـ بل يستغنى ياأم نفيسة ، ثم إننى أنا لن أترك الفتونة ولكنها هى ستختفى ، وكما قلت لك : إن البلد فيه فتونة من نوع جديد ، يسمونها الحركة الوطنية ويقودها كما قلت لك فتوة كبير ـ وباشا كمان ـ اسمه سعد زغلول ، وأنا لم أر هذا الرجل ولكن صدقينى ، إننى أحبه وأتمنى أن أقف معه ، لأننى مبسوط جدًا من وقوفه فى وجه الإنجليز ، وأنت ترين أن الناس يحبونه حبًا جنونيًا ، وأنا من عيلة كبيرة ، والفتونة لا تناسبنى .

ولم أقل لها عما جرى بينى وبين المأمور ، لا أدرى لماذا كنت أرى أن أمثال هذا التركى أو الشركسى ، لا ينبغى أن تكون لهم كلمة علينا أو يكون لهم على بلدنا أى سلطة ولو أن هذا المأمور مختلف بعض الشىء ، فقد رأيت أن عنده إحساساً كاملاً بالحركة الوطنية وسعد زغلول .

على أى حال لقد استحسنت الست جليلة فكرتى عن العطارة وأرسلت فأتت بعم منسى العطار وقد أعجبنى شكله ، فقد كان نظيفاً جدًا رغم فقره الواضح ، وكان يتكلم كلام الفاهم لما يقول ، المدرك لأسرار العطارة ، وقد قلت له : إننى لن أفهم العطارة مثله ـ ولكنى أريد أن أكون عطاراً وأننى أترك له كل شىء : الدكان والعطارة وقلت له : إننى أكتفى بالإشراف من بعيد ، وله أن يأخذ

مايريد ويدع مايريد .

وقـالت الست جليلة : هـذا كلـه معقول ولكنـه لا ينفع ، اسمع يامنسى : المعلم سيعطيك ما بين خمسمائة وألف جنيه ـ وكل شىء بحساب ، وأنت تبحث عن المحل وتؤجره ـ بـاسمه طبعاً ـ وتوضبه من كل ناحيـة وتملؤه عطـارة ، نريـد أحسن محل عطارة فى مصر ، وسيعطيك المعلم خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ، كويس كده ؟ .

ـ أشـــيا معدن يـاست ، ربنا يزيـدك من نعيم الله ، بس المعلم موافق .

ـ طبعـاً موافق ، وأنت فى هـذا العمل من الغـد ، والفلوس تحت أمرك .

قالت : بس عاوزين دفاتر يامنسى ، كل شىء فى دفاتر أرجوك وأنت ستمسك الدفاتر .

ـ أمرك ياست ، ترى يامعلـــم هل تناسـبك الساعة العاشرة صباحاً .

ـ ولماذا العاشرة ، تعال التاسعـة لتكتب العقد ، وتأخذ النقود ، وتتوكل على الله .

وبعد قليل نهضت أنا ومضيـت لكى أرى حسنين الدمهوجى ، وكـان لابـد أن أراه لكى أضـع نهايـة للعمل معـه ، مـادمت سأبـدأ العطارة من الغـد ، وجدته على عـادته فى مقهـاه خلف الترابيزة وفم

الشيشة فى يده ، كـانت على وجهه ابتسامة صفـراء ، فهمت معناها عندما قال : ماهو قد ذهب ؟.

ـ من هو الذى ذهب ؟.

ـ صديقك المأمور التركى الذى ذهبت واتفقت معه علينا .

فجلستُ فى هـدوء وطلبت قهـوة وقلت : لا أدرى يـامعلم ، متى تتعلم الكلام ؟ ، كيف تقـول مثل هذا الكـلام وأنت فتـــوة ، « وقد الدنيا » ؟ .

ـ أليس صحيحاً ؟.

ـ ولا حرف فيه صحيح ، ثم أين ذهب هذا المأمور ؟.

ـ نقلـوه حكمداراً فى الدقهليـة فيما أظن ، لم يكن من الممكن أن يستمر هنا بعد أن قـابلنى وعرفنى وقلت له ما قلت ، لم تفهمنى إلى الآن ، ومع ذلك فليس لدينـا وقت نضيعه وعندنـا مساء غد خـرجة معتبرة : خمسـة من أكبر تجار القماش عادوا من الحج ويقيمـون غداً حفلة أبهة ، وقـد اخترت (شهاب أبو زكريـا) لقيادة الخرجة ، ولكن حيث أنك أتيت فلا مـانع لديـه فى أن تقودها أنت ، هـذه فيها خمسمائة جنيه على الأقل ، إذا دفعـوها سهرنا معهم وكنـا حبايب وإلا كانت ليلتهم سوداء .

ـ شـــوف يامعلم ، مـادامت المسألة بـدون أذى أو دم فأنا فى خدمتك على أن يكون هذا آخر عمل لى معك .

ـ وإذا كان فيها دم ؟ .

ـ مادمت أنا ريس الخرجة فـاترك هذا الأمر لى ، والآن سيقول لى شهاب أين نتقـابل ، ومن سيكون معنـا ومع من نتكلم ، والتكال على الله ، وشربت القهوة وأخذت شهابـاً على جانب وقلت له : شوف ياشهاب . أنت تعرف أن طريقتى مع الناس الذوق والأدب ، وهؤلاء تجار محترمـون وعـائدون من الحج ، وهم جديـرون بـالاحترام ، وأرجوك أن تدعنى أتصرف كما أحب .

وتلاقينا وسرنا نحو الحفل ، لاحظـت أننا كنا ثمانية أشخاص هذه المرة ، لا أدرى لماذا ، فهذا تـرتيب حسنين الدمهوجى ، ولكننى لم أقل شيئاً ، وكـان شهاب محمـر الوجـه ، وكان من الـواضح أنه أكثر من الشراب ، واقتربنا من الحفل ، فـإذا هو فخم وبهيج وحافل بالناس ، على بعد خطوات منـه وقفنا وقبل أن نتقدم خرج (شهاب أبو زكـريا) من الصف وتقدم والـرجال وراءه دون أن يسأل عنى وهجم على كرسى ، وأخذه بين يديـه وقال : فين المسئول عن الحفلة دى ... ؟وتقـدم منـه رجل وقـور وقال : ليس لنـا مسئـول يـاأخ ، ولكـــن ماذا تريد منا أنت وإخوانك هؤلاء ؟ .

ـ أنتم تعرفوننا طبعـاً ، نحن رجال الفتوة حسنين الدمهوجى ، ونريد ـ هكذا دون كلام ـ ألف جنيه .

واستشطت غضبـاً ، وتقدمت منه فـأمسكت بالكرســى فى يده وقلت للرجل : نحن كما قال لك صاحبى رجـال الفتوة الدمهوجى ،

وعاوزين منكم خمسمائة جنيه .

ـ على العين والـرأس ، ثم أدخل يده فى صـدره يطلب الفلوس ، وإذا بحسنين الدمهوجى يتقدم ، لا أدرى من أين أتى ويقول : ألف جنيه كما قال الفتوة شهاب .. أنا حسنين الدمهوجى .

قلت : الاتفاق على خمسمائة يامعلم .

وأخذت الخمسمائة جنيه ووضعتهـا فى جيبى والرجل يقول : اتفضلوا اسهـروا معنا .. وإذا بشهـاب يحاول انتزاع الكـرسى من يـدى لكى يبـدأ فى تحطيم الأنـوار والسلب والنهب ولكنى انتـزعت الكـرسى من يده ، وأمـرت الرجـال بألا يقـذف أحد منهم شيئـاً ، وحـذرتهم ، وضربت شهابـاً ضربـة عنيفـة كنت أريد بها وجهـه ، ولكنها أصـابت رقبته إصابـة عنيفة جـدًا فأغمى عليه ، ووقع على الأرض وتفرق الرجال ، والتفت أبحث عن حسنين الدمهوجى ، فإذا به يستـدير لينصرف ، وكـان غيظى منه شـديداً ، فأمسكـت بقفاه وجذبته ثم خنقته وصفعته ، وحـال الرجال بيننا وأخذوه ومضوا ، وأتـانى أحـد الحاضـرين بكـرسى فجلست وقلت للرجل : أصـلى لا أحب هذه العقول ، والفتونة ليست سرقة .

ـ إذن فأنت المعـلم خليل الجوهـرى ، اتفضل يامعلم اتفضل ، فجلست وأنـا أقـول : لا عليكم استمـروا أنتم فى حفلكم ولا بأس عليكم .

ـ البوليـس عـاوزك ، ولكن تسهـر وتأكل معنا أولاً ، عـرفت

بطبيعة الحال لماذا يريدوننى فى القسم ، مادام المأمور قد نقل فقد أصبحت السلطة فى القسم فى يد الصول مؤقتاً ، وهو من رجال الدمهوجى ، ولو فى الظاهر ، وعندما وصلت إلى القسم قال لى الصول : ماهذا الذى فعلته يامعلم ؟ كسرت رقبة (شهاب أبو زكريا) وضربت المعلم الدمهوجى ؟ هل يجرؤ إنسان على ضرب كبير الفتوات ؟.

ـ ضربته لأنه كان لصًا ، وشهاب أبو زكريا « قتال قتله » ..

ـ ولكن التجار الذين ذهبتم إليهم أمس كلهم حرامية .

ـ من قال لك إنهم حرامية ؟ .

ـ إنهم يعملون مع اليهود والطلاينة والحمايات ، وفلوسهم كلها حرام ..

ـ أنت الذى تقول ذلك ياحضرة الصول .

ـ لأننى أعرفهم عمرى كله ..

ـ ماعلينا .. ماذا تريد منى ؟.

ـ أريد أن أثبت فقط أننى استدعيتك لأن لدينا إصابتين جنائيتين ، وأنا لا أستطيع القبض عليك لأن هذا يحتاج إلى أمر نيابة ، ووكيل النيابة سيكون هنا غداً فى التاسعة صباحاً ، وأنت تستطيع أن تعود إلى بيتك الآن ، ولكن لابد أن تكون هنا فى التاسعة صباحاً ، وأرجو أن توقع هنا ، ووقعت ومضيت .

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، ولم أرد الذهاب إلى بيت الست جليلة مع أنها كانت زوجتى إلا أنها كانت تنام فى بيتها إلا إذا كنت أريدها ومن حسن الحظ أنها كانت لديها سهرة ، فأخذتها على جنب وحكيت لها ماجرى ، وأعطيتها سبعمائة جنيه ورجوتها أن تستدعى المعلم منسى فى الصباح ، وتكتب معه العقد فى الحدود التى اتفقنا عليها لكى يشرع فى التنفيذ ، ويفتح محل العطارة باسمى فى الحال ، قلت لها إننا نجعل راتبه الشهرى ثلاثين جنيهاً فى الشهر ونعطيه المصاريف ، وسأذهب الآن إلى بيتى ، فدعتنى إلى إكمال السهرة عندها فاعتذرت بأننى متعب ، وكنت فعلاً متعباً ، قلت لها إننى أتوقع القبض على من الغد ولكن هذا لايهم ، المهم أن يأتينى المعلم منسى بالعقد فى القسم قبل الظهر .

وذهبت إلى بيتى ونمت ، كانت أم عبد الحميد قلقة علىَّ جدًّا وفرحت عندما رأتنى ، كان هناك أيضاً جمعة . دخلت فنمت فى الحال .

وقبيل التاسعة صباحاً كنت فى القسم ، ولم يلبث وكيل النيابة أن أتى . عرفت أنه كان فى القسم من السابعة صباحاً ، وأنه ذهب إلى المستشفى ثم عاد ، وقال لى : عندك حظ . لقد أفاق هذا الرجل الذى اسمه (شهاب أبو زكريا) ، كان مغمى عليه إلى الفجر نريد الآن أن نفتح محضر ، مستعد ؟ .

ـ أمرك ياسعادة البيه ..

وفتحنا المحضر والحق أن وكيل النيابة كان رجلاً محترماً جدًّا ، وقد فهمت أن بعض أولاد التجار الذين حضرنا حفلهم بالأمس زملاء دراسة له ، وأن بعضهم أوصاه بي فكان ظريفاً جدًّا معى ، وحبسونى أربعة أيام ثم أربعة عشر يوماً وبدأت القضية ، والتجار أقاموا لى محامياً ، ولا تتصور الأكاذيب التى قالها حسنين الدمهوجى وشهاب أبو زكريا ، ولكن المحكمة كانت عادلة جدًّا معى وبعد تحقيق شهر ونصف الشهر تقريباً صدر الحكم بحبسى ثمانية أشهر ، كانت عقوبة خفيفة جدًّا ، وكانت معاملة الناس لى فى السجن إنسانية جدًّا لأننى ـ كما تعرف ـ كنت مطيعاً جدا للحكومة ورجالها ، وكان عم منسى يزورنى بانتظام ، وعرفت أنه أنشأ الدكان بالفعل وأننى أصبحت عطاراً ، وكانت الست جليلة تزورنى وتحضر لى الغداء إياه أحياناً ، وكان هذا يضايق أم عبد الحميد .

وفى ذات يوم ، وفى وقت الزيارة ـ أتانى عم منسى ، ومعه الست نفيسة ابنة أخت الست جليلة ، وقال منسى : أنا لا دعوى لى بذلك ، هى التى أصرت على زيارتك ، كان من رأيى ألا تراك إلا خارج السجن ولكنها أصرت على زيارتك وقالت لى : أرجو ألا يضايقك ذلك .

قلت : ياخبر ياست ! كيف تضايقنى زيارتك وهى شرف لى ؟ .

قالت : لقد أحضرت لك الغدوة التى تحبها .

قلت : ألف شكر ياست هانم ، إننى أريد أن أبطل هذه الأكلة ، فإننى أحبها فعلاً ولكنها تضر صحتى .

قالت : معلهش ، اقبلها منى ، إننا كلنا نحبك لأنك تؤدب المجرمين.

قلت : ياست هانم ، ألا ترون منى إلا المتاعب ؟.

ـ أى متاعب يامعلم وأنت زينة الحى كله ؟ .

وكنت فى أثناء ذلك أتأملها ، أعجبتنى وإن كانت سمينة بعض الشىء ، ويومها علمت أن خالتها الست جليلة تريد الطلاق منى ، لأن الزواج منى كان ـ كما قالت ـ لا يتفق مع طبيعتها ، وذكرت ذلك لنفيسة وقلت لها إننى مستعد للطلاق ، فأنا لا أريد مضايقة لأحد .

وكانت عطارتى تسير فى نجاح زاد على كل ماتوقعت ، وكان ابنى زيدان ـ بعد طلاقى من أمه قد كبر ومالت نفسى إلى أولاد جدد وكانت نفيسة فى الثامنة والعشرين من عمرها وكانت جميلة ولطيفة ومطيعة ، وكلمة حاضر على لسانها «وحاضر » كما تعرف تفتح البيوت .

ـ ست نفيسة ، هل تتزوجينى ؟.

ففتحت عينيها دهشة وظلت صامتة .

ـ ست نفيسة . أنت قمر . وقد أحبك قلبى أول مارأيتك ..

قالت : ولكن ماذا تفعل بخالتى ؟! .

قلت لك : إنها تريد الطلاق منى وسأطلقها .

فقالت : بعد أن تخرج من السجن .

قلت : لا ، هنا فى السجن سآتى بالمأذون والشهود ونتزوج بعد الظهر اليوم .

قالت : أمرك .

وبالفعل حضر المأذون وطلقت خالتها وتزوجتها وأنا فى السجن لا تتصور احتفال أهل السجن بزواجى ، لأننى كنت مؤدباً جدًّا مع مدير السجن والعساكر .

وقال لى المدير : يامعلم خليل . إذا وعدتنى أن تعود غداً صباحاً سمحت لك بأن تذهب إلى بيتك لتحتفل بزواجك مع امرأتك .

ـــ لا داعى لذلك ياسعادة البيه . إنها على أى حال زوجتى وستذهب الآن إلى بيتى وستتولى تجارتى .

وكان أهل السجن فى غاية الظرف معى بعد ذلك . كانت مدة السجن ثمانية أشهر ، ولكنهم أطلقوا سراحى بعد خمسة شهور . خرجت حوالى الظهر فوجدت مظاهرة فى انتظارى . كل تجار الحى كانوا هناك على رأس المظاهرة ، وكانت زوجتى نفيسة . ما أحلاها معهم ، وكان معها عم منسى .

بعد المظاهرة والهيصة ذهبت إلى بيتى . كانت نفيسة قد أعدت لى الغداء إياه ، فأكلت ونمت كالجاموس . بعد الظهر نهضت وذهبت

إلى محل العطارة . ماشاء الله كـان عم منسى قد جعله أعظم عطارة فى مصر .

فى المحل أتانى يعقـوب الزنط رئيس عصابتى كنت قـد اخترته فقد أعجبتنى شجـاعته فجعلتـه رئيس عصابتى . قلت إنـه أتانى ، وأضيف الآن أنه كان ومعـه أربعة رجال كالحيطان .. هـؤلاء كانوا رجالى .

وقال لى يعقـوب : يامعلم ، الولـد محمود أبو راسين فتـوة باب الخلق يريد أن يستـولى على منطقتنا ، ورجال الصاغـة يرجونك أن تكسر رجله ، وأرى أن نضربه الليلة .

ـ إننى أفكر فى ترك الفتونة وكفاية على العطارة .

ـ غير ممكن يـاسيـد الفتـوات . هـذه علبـة فيهـا ألفـان من الجنيهات جمعها لـك الجواهرجية هم يريـدون أن نكسر رقبته لأنه رجل حرامى وجبار .

ألفان من الجنيهات !! .

هذه هى فى يدك .

إذن نضربه ، أين سيكون هذه الليلة ؟.

ـ ابنه سيتزوج الليلة ، ونحن سنـذهب ونضربه فى فرح ابنه . هـذه ستكـون العلقـة الى هى نحن رجـالك وسترى منـا العجب ! الساعة التاسعة مساء سآتيك فى بيتك ونذهب .

كـان فـرح ابن محمـود أبـو راسين فى أحـد شـوارع حـوش الشرقاوى المتفـرع من تحت الربع .. ذهبنا وكنا سبعـة رجال مثل فلوق النخل . وجـدنا الفرح على رجـل ، والمدعوون كانـو أكثر من ألف شخص ، والراقصـات يرقصن والـدنيا مقلوبـة .. وكان المعلم محمـود وسط هذه الهيصـة كأنه ملك وقـد لبس قفطانـاً صوفيـاً عظيماً وعمامة ضخمة جـداً . وكان جالساً وسط النـاس . حقا لقد كان لصا بشعـاً ، وكان غنياً جداً . ولكنه كـان رجلاً محترم الهيئة ، وكانت فى أيـدينا النبابيت ، دخلت ومن خلفى رجالى . لا يـدرى أحد ماذا كـان يصيبنى لأننى كنت أنسى نفسى فى مثل هذه المنـاسبات وأتحول إلى وحش . ذهبت إلى المعلم محمـود ووقفت أمامـه وقلت : أنت الواد الحرامى ؟.

وذهل الرجل ونهض وهو يقول : ماذا تقول ياواد ياابن القرعة .. اضربوه يـارجالـة . ودارت المعركـة ، وانتصرنا ، ولكنى جـرحت جرحاً شديداً فى فخذى .

وذهبنا إلى القسم وأنـا أتوكأ على يعقـوب .. وهناك أنكـرنا كل شىء ، وتصور أن انسانا واحدًا لم يجرؤ على الشهادة .

أصبحت إذن بطلا قـومياً . ولكنى بـدأت أحس أن عمل الفتوة ليس بـالعمل الشريف . فـإن الفتـوة طـوال الـوقت يضرب النـاس ويسرق وينهب ويأخذ النقود دون عمل . ومما يدلك على حقارة هذه المهنـة أنه فى ذات يـوم أتتنى امـرأة معلمـة ، يبدو من شكلهـا أنها

مجرمة قليلة الحياء ، وأخرجت من صدرها مبلغاً من النقود وناولتنى إياه وقالت : هذه خمسمائة جنيه لك .

ـ ولماذا تعطينى إياها ؟.

ـ لكى تضرب زوجى علقة لا يصحو منها .

ـ ولماذا أضربه إن شاء الله ؟ .

ـ لأنه رجل مجرم وشَرانى ولا يمر يوم إلا ويضربنى علقة .

ـ أنا لا أضرب أفراداً .. ومع ذلك فدعينى أراه .. كيف أراه ؟.

ـ تأتينى إلى بيتى هذه الليلة وسآمر الخدم بأن يفتحوا لك الباب فتدخل وترى كيف يضربنى هذا المجرم ؟.

وفى منتصف الليل ذهبت مع واحد من رجالى يسمى رجب الفنجرى ودخلنا ، وأشعرنا الست بدخولنا وهنا بدأت تتشاجر مع زوجها ، والمسكين كان « غلباناً » جدًّا أمامها وهى كالوحش الكاسر ولسانها كله سم . وتعجبت وقلت لها : إيه ده يانصابة ؟ هل هذا هو الرجل القاسى الذى قلت لى إنه يضربك كل ليلة ؟ وأنت كما أرى أكبر بلطجية فى البلد .. وإذا كان هناك إنسان يستحق الضرب فهو أنت !.

ثم ناديت رجب .. وقلت له خذ هذه البلطجية قلمين ، وضربها قلمين ووقعت على الأرض .

وقلت لها : اسمعى ياست والله لو سمعنا أنك فعلت شيئا

بزوجك هذا فسنعود إليك ونقصف رقبتك !.

وقال الزوج المسكين :أنا أقول لك يامعلم : هذه المرأة تحب رجلاً آخر وتريد أن تتزوجه ، وهى لذلك تريد أن تتخلص منى مع أن المال كله مالى وهذا البيت بيتى .

ـ وما الذى يرغمك على العيش معها ؟.

ـ إنها كما ترى شرانية وأنا أخاف على نفسى منها .

ـ لأنك رجل جبان ..

ـ أنا جبان ؟.

ـ نعم .. أنت جبان .طلقها الآن ونحن نأخذها ونخرجها من البيت .. وسيقيم معك هنا رجب الفنجرى هذا ولن تجرؤ المرأة على دخول البيت عليك ، وطلقها الرجل وأخذناها مع ملابسها وأخرجناها من البيت وحذرناها من العودة .

وبعد أيام مر بى عم منسى العطار ، وقال:

شوف يامعلم . إن تجارتنا تخسر .

ـ ليه ؟ لا سمح الله ؟.

ـ لأن الناس تخشى أن تشترى من محل فتوة ويخافون أن يختلفوا معك فتضربهم !.

ـ أضربهم ؟ وهل أنا بلطجى ؟.

ـ هـــذا مـايقولـه الناس . وقد أرضيـت ضميرى وصارحتك بالحقيقة .

ـ والحل ؟.

ـ الأمر أمرك ، ولكنى إذا كنت منك تـركت الفتونة ، فهى ليست عملاً محترمـاً ، ثم إن العطارة كنـز ونحن نستطيع أن نكسب منها الذهب .

وفكرت قليلاً وقلت : تعـــرف أن عنـدك حـــق يامنسى : إننى لا أفعل شيئاً إلا العدوان على الناس وآخذ أموالهم دون عمل ، ثم إن المرض اشتد على ولابد أن أستريح .

قال منسى : أنا أيضاً أقـول ذلك ، ولابد أن تترك الغدوة المهببة إياها لكى يستريح كبدك .

ـ أنا أفعل ذلك إن شاء الله .

وقالت نفيسـة ـ لا ، أنت لا تستمـر فى الأكلة إياهـا ، أنت تأكل المسلـوق فقط ، لابـد أن تتـوقف عن ذلك . لقـد كبر ولـداك محمـد وسليمان ولابـــد أن تعيش لتربيهما ، وأنت إذا سرت على أكل هـــذا السم فإنك لن تعيش ، وقد نبهك الأطباء إلى ذلك .

ـ ولكن يانفيسة إن الفتونة تأتينا بآلاف الجنيهات .

ـ كلها فلوس حرام ، ثم إنك أنت لاتسأل نفسك : كم مرة دخلت السجن ؟.

ـ أنت على حق . سأنظر فى ترك هذه الشغلانة الشؤم وأتفرغ للعطارة ، ثم إن جنبى يؤلمنى الآن جدًا ، بل إنى أحس بوجع فى رجلى.

قالت نفيسة ـــ لاحظت ذلك . أنت رجل مريض وأنا أخاف عليك.

ـــ عندك حق . وسأنظر كيف أتخلص من الفتونة وأتفرغ للعطارة لكى أتمتع بعائلتى وأولادى .

وبعد أيام قلت لرجب الفنجرى : شوف يارجب . أنا أريد أن أترك هذه المهنة .

فقال : مش ممكن يامعلم .

ـ إزاى مش ممكن ؟ .

ـ من غيرك تصبح الفتونة مستحيلة !,

ـــ ولكنى أريد أن أترك هذه المهنة لأننى مريض ولم أعد أستطيع الاستمرار فى ذلك العمل الخطير .

ـ إذن تفكر فى ذلك بعد العملية التى سأعرضها عليك .

ـ وماهى ؟.

ـ شوف يامعلم . فيه واحد أرمنى صاحب بنك . كل فلوسه من الربا الفاحش .. إنه يسلف الفلوس بسعر ٢٠ و ٢٥ فى المائة . ونحن

نريد أن نهجم على ذلك البنك ونأخذ كل فلوسه .

- إذن فهذه شغلانة سرقة يارجب يافنجرى ؟.

- هذه لا ، لأن هذا الرجل مراب شرير ، وفلوسه حلال لنا ..

- ولكنها سرقة يارجب يافنجرى ، وأنا زهقت من السرقة .

- بعد هذه العملية ! هذا المرابى اللعين لديه على الأقل مليون جنيه ونحن نضربه الضربه اللى هى ، ثم بعد ذلك نترك الفتونة كلنا لأننا سنصبح أغنياء .

وعندما سمعت لفظ المليون دار رأسى ، ولم أكن أعلم ماهو المليون ، ولكنى كنت أعرف أنه شىء كبير جدًا ، وكنت أعرف فعلاً أن هذا البنك يقوم على المراباة البشعة ، وأن صاحبه - واسمه شىء مثل قفطان بن برطمان - رجل لعين يأخذ من الناس أرباحاً تصل إلى ٢٥ أو ٣٠ فى المائة ، وكان ينهب الفلاحين المساكين الذين لا يعرفون كيف يميزون الألف من كوز الذرة ، هؤلاء كان يقرضهم مئات من الجنيهات وينتهى الأمر بمصادرة أملاكهم وبيع مواشيهم وطردهم من الأرض .

وقلت لنفسى : هذا لعين بالفعل ، وسرقة اللعين ليست سرقة . ووافقت على أن نقوم بالعملية . كنت مشتاقاً إلى أن يكون عندى مليون جنيه . قالوا لى إن مليون جنيه تملأ عربة قطار .

واستعددت لهذه الضربة كما لم أستعد لضربة أخرى ، بل

ذهبت بنفسى إلى هـذا البنك فى ميـدان الأوبـرا ، وصعـدت السلم وعاينت كل شىء ، وكنت أنـا ورجالى قد تعلمنا استخـدام الأسلحة النارية التى غنمناها من الإنجليـز فى ضربة الشقة ، وكان قد مهر فى استعمال السـلاح رجب الفنجرى كـان يحسن استعمال المسـدس الأتوماتيكى ، ويعقوب الزنط كان يتقن استعمال البندقية الرشاشة وكنت أعرف أن البنك فيه خزائن حديدية فرتبت أن يكون معنا أمهر رجل فى مصر فى فتح الخزائن .

وذهبت فى اليوم المحدد بعد منتصف الليل . كنا ثمانية . الفرقة كلها ومعنا المتخصص فى فتح الخزائن . كنـا جميعا مسلحين ، وأنا كان معى مسدس رشاش يطلق سبع رصاصات متوالية .

ووقف رجب الفنجرى ومسدسـه فى يده على باب البنك مستعد للإطلاق إذا حدث أمـر . ووقف يعقوب الزنط بالبندقيـة الرشاشة على السلم وهى ملآى بالذخيرة ويده على الزناد .

واقتحمنا بـاب البنك . كان البنك شقتين : هما الـدوران الثالث والرابع من عمارة فى ميـدان الأوبرا لم أكن أعلم أن الرجل ـــ قفطان ابن بـرطمان ـــ ينـام فى البنك ومعه حـرس . لم نكـد نـدخل حتى اعترضنا ـ ودون إحساس منى أطلقت الـرصاص عليه وقتلته ، تلك كانت الجريمة الوحيدة التى ارتكبتهـا فى حياتى : قتلت مرابياً لعيناً مجرماً . كـان معه حـارسان قتلهما رجالى . مـن العجب أن أحداً فى الشارع أو البيوت المجاورة لم يتنبه . دخلنا وفتحنا الخزائن وعبأنا

المال فى ثلاثة جوالات كانت معنا ، وفى هذه الأثناء قتلنا حارساً ثالثاً وأصبح عدد القتلى أربعة ، حادث فظيع ، أما نحن فلم يصب أحد منا بسوء ، ونزلنا وركبنا سيارتى ، وكانت تنتظرنى ، وذهبنا إلى قرب بيتى ، هناك أعطيت الرجل المتخصص فى فتح الخزائن ألف جنيه ومضى لحاله ، اتفقت مع رجالى على أن أذهب بالجوالات إلى بيتى وأن أخبئها من البوليس واتفقنا على ألا نتلاقى لمدة أسبوع ، بعد أسبوع نتلاقى ليأخذ كل منا نصيبه .

وكنت قد حفرت فى حديقة البيت حفرة واسعة ألقينا فيها الأجولة وغطيناها بالتراب حتى لايعرف مكانها أحد ، وبالفعل لم يكتشفها أحد ، ودخلت بيتى كنت فى غاية التعب والاضطراب ، كانت نفيسه نائمة أما التى كانت متيقظة تنتظرنى فكانت أم عبد الحميد ، هذه المرأة المخلصة التى ماأظن أن امرأة أحبتنى فى حياتى مثلها ، أخذتنى وغيرت لى ملابسى ، وكانت عليها دماء كثيرة ألبستنى ملابس أخرى نظيفة ورافقتنى إلى الفراش فى غرفة غير غرفة نفيسة ونمت وغطتنى وأخذت الملابس التى عليها الدماء لكى تغسلها . كان هناك أيضاً جمعة ، هذا الرجل المخلص الذى كان مستعداً لأن يبيع عمره فى سبيلى ، نام على باب الغرفة يحرسنى ، ومازال إلى يومنا هذا ينام على بابى يحرسنى ، وجدت أم عبد الحميد أن أحسن ماتفعله بالملابس الملوثة بالدماء هو أن تحرقها فأحرقتها .

والجريمة روعت القاهرة بل مصر كلها ، ومع أننا كنا بعيدين عن كل شبهة إلا أن البوليس شك فى وأتى إلى بيتى فوجدنى مريضاً وكنت مريضاً بالفعل ، وانصرف دون نتيجة ، ولكنهم عادوا لأنهم كانوا مصرين على أن يجدوا النقود ، لأن عددا كبيراً من الضباط والجنود الإنجليز كانوا يطمعون فى شىء من مال الرجل ، ولكن أحداً لم يجد شيئاً ، ثم إننى كنت مريضاً بالفعل فتركونى ، وبعد أسبوعين قسمت المال على الرجال ، فأعطيت كلا منهم ألفى جنيه وبقى عندى نحو خمسة آلاف جنيه ففرشت البيت واحتفظت بالباقى وكان هناك الكثيرون المتهمون فى القضية لأنهم كانوا يحلمون بنصيب من أموال الأرمنى وعرفنا نحن كيف نضللهم . كانوا يزورونني كل يوم ويبحثون ويفتشون دون فائدة وأنا كنت مريضاً فى السرير ، وبعد أن أتو نحو عشر مرات توقفوا عن المجىء وبعد عشرة أيام من الهدوء نزلت فى عز النهار وحفرت وأخذت الجوالات وأعطيتها لرجب الفنجرى ليذهب بها إلى مقبرة كنا ندفن فيها أشياءنا .. كانت مقبرة فاخرة بناها إسماعيل باشا لإحدى جواريه ، وكلها رخام ملون وهى إذا دخلتها وجدت نفسك فى صالون . وكان رجب الفنجرى ينام فيها معظم لياليه .

بعد أيام مر بى فى البيت رجل كبير الشارب يلبس بذلة أنيقة وقال لى : بلغنا أنك رفضت التجسس للإنجليز .

ـ ومن أنت أولاً ؟.

ـ أنا أعمل مع محمود بك فهمى النقراشى .

ـ الزعيم الوفدى ؟.

ـ نعم ، وقد سرنا مابلغنا من أنك رفضت التجسس للإنجليز .

ـ طبعاً ، وهل هناك رجل محترم يتجسس للإنجليز ؟.

ألا تزال طبعاً و نحن الآن نريد أن نقدم لك أى خدمة تريد . أنت فتوة المناصرة وشارع الأزهر .

ـ أجل ، ولكنى فى حاجـة إلى طبيب . عندى داء الفيل وقد رفض الإنجليز علاجى عندما رفضت التجسس على الشباب المصرى .

ـ عندنا أطباء محترمون جدًّا ، ونحن لن نكتفى بعلاجك بل إن النقراشى بك يريد أن يراك .

ـ أنا فى خدمته .

ـ غداً صباحاً أمر عليك هنا وآخذك إلى النقراشى .

ـ وإلى الطبيب .

ـ وإلى الطبيب طبعاً .

وفى اليـوم التـالى أتى هذا الـرجل وأخـذنى فى سيـارة إلى بيت النقراشى ، كـان رجلاً محترماً جدًّا وجدتُ عنـده أخبار كل شىء ، وقال لى : إن الإنجليز يخافوننى لأننى فتوة شجاع ، وأنهم يريدون كسبى إلى جانبهم .

وحكيت له حكاية الضابط اليونانى فتكلم بالتليفون وقال لى : ستذهب الآن إلى قصر العينى وستقابل الدكتور القللى ، إنه من أعاظم الأطباء فى مصر وسيعالجك ، وبالفعل بذل الدكتور مجهوداً لعلاجى ، وتحسنت صحتى وذهبت بعد ذلك إلى النقراشى فقال لى ماعلاقتك بالإنجليز ؟.

قلت : لا علاقة لى بهم ، إنهم كلاب يحتلون بلدنا .

قال : أرجو أن تكون صادقاً ، والآن ستذهب مع أحد مساعدى لكى تدخل الوفد ، وتكون من رجال مصر الوطنيين ، وذهبت مع الرجل إلى غرفة فى بيت الأمة .

وقال الرجل : الآن أنت وفدى ، ومن الآن أنت ستكون خادم النحاس باشا .

قلت : لا ، أنا خادم رئيس الوفد وخليفة سعد أيًّا كان .

كانت فرقة من جنود الإنجليز على رأسهم ضابط كبير يقال : إنه كان لفتنانت جنرال فى طريقهم من العتبة إلى القلعة وفى مقدمتهم رئيسهم على ظهر حصان ، وعندما مروا بمحل فول انفتحت نفوس الجنود فقالوا لرئيسهم : نريد أن نأكل .

ـ كلوا ماتريدون .

والمترجم الشامى معهم قال لصاحب المحل : الرجال يريدون أن يأكلوا يامعلم .

- وراح يدفعوا إن شاء الله .

- وماذا يحدث إذا لم يدفعوا ؟.

- لن يأكلوا !..

وسأل الضابط الكبير عما قيل ، عرف أن صاحب محل الفول قال إنهم إذا لم يدفعوا لن يأكلوا .

فقال فى كبرياء : إذن فسيأكلون ولن يدفعوا فأرونا شطارتكم .

وهجم الجنود يأكلون والضابط يتفرج ، وأتوه بسندوتش فأكل وقال : كويس أعطونى سندويتشاً آخر ! وأتوه بسندوتش آخر ، كل ذلك والمعركة دائرة بين صاحب محل الفول ورجاله ، والضرب كان عنيفاً ، لأن الإنجليز كانوا يضربون برأس البندقية ، وصاحب المحل وقع على الأرض وانبطح معظم العمال وجرحوا .

وكان أمام المحل محل نجارة ، وكان صاحب المحل غائباً ، ولكن ابنه واسمه رشاد شاهين وشهرته رشاد القباقيبى فى المحل ، فثارت ثورته وأخذ قطعة خشب وانضم إليه نحو عشرة أصدقاء وعمال وانقضوا على الضابط ، وضربه رشاد بالعصا ، واجتذبه من على الحصان وألقاه على الأرض وضربه ، وبقية رجال رشاد هجموا على الجنود الإنجليز كالبرق ، وضربوهم بالخشب ورشاد قال لا تخافوا ، الضابط تحت يدى وسنخلع عنه ملابسه ونكتفه ونربطه بذيل الحصان ! وفعلوا ذلك به وبتسعة من الجنود ، أما

الباقـون فقد فـروا بعد أن ألقوا بنـدقياتهم ، وسـار الحصان يجر الضابط إلى القلعة .

أخذ رشاد القباقيبى الملابس والسلاح ، وعاد إلى محل النجارة ، فأخـرجـوا مـا وجـدوه من جيوب العسـاكـر ، وأحـرقـوا الملابس والقبعـات ، وجرى العسـاكـر بملابسهم الـداخليـة نحو القلعـة ، وعندما وجـدوا ضابطهم مربوطاً فى ذيل الحصان فكـوه والتفوا به حلقة ، وساروا نحو القلعـة ، و الحادثة أدهشت المصريين فخرجوا فى أفراح وموسيقى ورقص وغناء وظلوا على ذلك إلى الفجر .

واشتهـرت بطولـة القباقيبى ورجـاله فى مصر كلهـا ، لم تنشر الصحف شيئاً ، ولكن الناس فى مصر كلها عرفوا أن القباقيبى ضرب الإنجليز علقة ساخنة ورجـاله بهدلوا الجنرال الإنجليزى ، وبعض الناس قالوا : إنه الوفد ، ولكن الوفد نشر بياناً قال فيه : إنه لا علاقة له بحادثـة القباقيبى ، لأنهم حزب سياسى لا يـرتكب جرائم ، وقد ساءنى هذا الإعلان جدًا .

فقلت للنقراشى بك : لماذا تقولون ذلك ياباشا ؟.

قـال : أنت لا تعرف الإنجليـز ، إنهم فى غايـة الـوقاحـة ، ومن الممكن أن يحبسونا كلنا .

قلت : وإيه يعنى ، يحبسونكم وتتكون هيئة وفدية جديدة .

قال : خليك فى شغلك يامعلم جوهرى وسيب السياسة لنا .

وزعلت أكثر ، ولكنى تركته غاضبـاً وأنا أقول : هؤلاء الإنجليز

أعداء ولابد أن نحاربهم ، لماذا نخاف منهم ؟ نحن لا يمكن أن ننتصر إذا كنا نخاف .

وذهبت بنفسى إلى دكان القباقيبى فقالوا لى إنه يتمرن على السلاح فى وادى الحمار فى حلوان ، فذهبت إليه فوجدت نفسى أمام شاب شهم جميل الصورة يرتدى جلباباً ، ويلف وسطه بحزام فيه الرصاص ، وهو يتمرن على الرمى بالرصاص ، وأعجبنى جدًا وتغديت معه وقلت له : حاسبوا على أنفسكم من الإنجليز يارشاد إنهم قساة غلاظ الأكباد .

قال : ولا يهمك ، نحن أيضاً رجال وجنود ، وإن شاء الله سننتصر عليهم .

فقلت له : خذ هذه ألفا جنيه ، وإذا أردت أكثر أعطيناك وعندنا سلاح .

قال : فعلاً نحن فى حاجة إلى الفلوس فنحن لا نعمل ، ولكن من أنت ؟!!! .

ـ أنا خليل الجوهرى .

فصاح فرحاً : فتوة شارع محمد على ؟.

ـ وخادم مصر أيضاً ..

فقال : كنت واثقاً من أنك معى ، الحقيقة أن الإنجليز الذين فى مصر أنذال ولكن جبننا يطمعهم فينا ، تصور أننى ضربت الجنرال

بيدى هاتين ، وخلعت ملابسه فلم يبق إلا الفانلة واللباس وربطته فى ذيل حصانه وركبته الحصان فسار به نحو القلعة .

قلت : كل مصر تعرف الحكاية ، وأنت الآن بطل مصرى ، وأنا أتيت لأنضم إليك ، لأن الفتوة يجب أن يكون مع أبطال بلاده .

ـ أهلاً وسهلاً .

ـ وأريد أن أقول لك : إن الإنجليز لن ينسوا مافعلتموه معهم .

ـ فعلاً ولهذا فنحن نتمرن على الرصاص لكى نلقاهم ، وقد سمعنا أنهم سيهاجموننا بمدفع ، وإن شاء الله سنخطف المدفع منهم ونضربهم به .

ـ أنا يارشاد هو الذى سيخطف المدفع ، ومن الآن سأبحث عن مدفع أتمرن عليه .

ـ اسمع ، فى المحافظة مدفع ، إنه فى الداخل فى الحوش .

ـ بس سيبنى أنا أخطفه ، أنا سأخطفه مع العسكرى بتاعه لكى يبقى معنا ، ويضرب المدفع أو أنا أتعلم منه إذا لم تكن لديه الشهامة الكافية .

ـ يعنى نسيب لك حكاية المدفع ؟ .

ـ أيوه ، وهناك مسألة أخرى تسيبها لى : موعد المعركة ، أنا لى جواسيس عندهم وسأعرف التاريخ وأبلغك ، والآن أتركك يارشاد لكى تستفيد من الوقت فى التدريب .

قال تتعشى معى الليلة لكى نرسم الخطة .

ـ حاضر ، بسن فين .

ـ اسمع سأترك معك رجلاً من رجالى الأمناء سيعرف مكان العشاء ويأتى ليأخذنى .

ـ طيب مع السلامة ـ وعاد إلى التمرين .

وكان من رجالى شاب يسمى عطا عبد العال ، كان جاسوساً ممتازاً ، وفى حياتى لم أكلفه بعمل إلا قام به على أحسن وجه . وكنت أعطيه راتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات ، وعشرة جنيهات عن كل مهمة يقوم بها ، فناديته وقلت له : فيه مهمة كبيرة وأنا خايف أكلفك بها .

فقال عطا عبد العال : عيب يامعلم ـ عطا يحقق لك المستحيل ـ أنت مرة كلفتنى بحاجة وأنا لم أقم بها ؟.

ـ لا والحق يقال .

ـ إذن هات ماعندك .

ـ نقرأ الفاتحة ياعطا ـ وقرأناها .

قلت : شوف ياعطا فى المحافظة مدفع فى الحوش .

قال : كويس وبعدين .

ـ المدفع ده له صول مصرى اسمه رجب عبد السلام عاوزك تجيبو لى .

ـ من عينى دى وعينى دى .. عايزه امتى (ومتى تريده ؟؟)

ـ النهاردة التلات ، عاوزه الخميس بعد الظهر .

ـ إن شاء الله يكـون عندك ، وأظن أن الأحسن أنى أجيبولك فى محل العطارة .

ـ كويس ، رأيك كويس !.

ـ حاضر يامعلم ، بس لى رجا !!.

ـ قول ياعطا !!.

ـ أخويا يتزوج الليلة ، وعاوز أجيب له هدية بحاجة زى عشرة جنيه .

ـ حاضر ياعطا . عشرة جنيه منك وعشرة منِّى .

ـ الله يخليك يامعلم جوهرى ، الله يخليك .

ـ هـذه هى العشرون جنيهـاً يـا عطـا ، وحتى نهار الخميس الساعة أربعة فى محل العطارة .

ويـوم الخميس الساعـة ٤ كان عطـا عندى فى محل العطـارة ومعـه حسن رجب ، ودخلنـا فى ركن وطلبت شـايـاً وأشرت إلى عم منسى أن يبتعد عنـا وقلت لرجب عبـد السلام : أنت صـول مدفع المحافظة ؟ .

فسكت فقلت له : اتكلم ياحسن . انت بطل وبتكلم بطل .

- بس ده سر يامعلم .

- وأنت ستقوله لى ويظل سرًا .

- أرجوك يامعلم .

- لاتخف .

- إذن فأنا صول المدفع ، ولا أحد يعرف ذلك .

- إذن فاسمع كلامى ولتعرف أنه سر ، فإذا أعجبك نفذته ، وإذا لم يعجبك سأعطيك عشرين جنيهاً ، وتنصرف ولا أحد يدرى ، أما إذا أفشيت السر فلا عقاب لك عندى إلا السلخ وتركك تموت حيًا .

- أعوذ بالله يامعلم .

- مستعد تمشى ويانا .

- على بركة الله ولاتخف منى أبداً .

- قوللى ياحسن .. ما يوم إجازتك ؟ .

- يوم الجمعة زى كل الموظفين .

- إذن أصارحك أننا نريد خطف المدفع يوم إجازتك .

- وماذا ستفعلون به ؟.

- أقول لك الحق ، سنحارب به الإنجليز .

ففكر الرجل قليلاً ثم قال : لا بقى ، إذا كنتم ستحاربون الإنجليز فأنا معكم ، هؤلاء ظلمة وجبارون وأعداء لمصر والإسلام .

ـ شوف ياحسن لا نريد أن تعرض نفسك للخطر .

ـ ليه ، وهل أنا أقل منكم .

ـ لا ، لاسمح الله ، بس يعنى من باب الاحتياط .

ـ لا تخف أبداً ومعك رجل مصرى وطنى .

ـ مادمت أنت كذلك ، فإذا جرى لك شىء ستجد حرمك ألف جنيه تعويضاً عند عطا ، أنا سأعطى النقود لعطا ، وأنت تقول لامرأتك : إنك مدخر ألف جنيه عند عطا ، وعطا يذهب ويعطيها الألف جنيه .

ـ إذن على بركة الله .

ـ ومن رئيسك ؟.

ـ خواجا أرمنى عامل إنجليزى .

فنظرت إلى عطا وقلت : يبقى ده الضابط الأرمنى بتاعنا .

ـ لا يامعلم ، ده واحد تانى .

ـ زى بعضه ، ماهو يوم إجازته ؟.

ـ يوم الأحد .

قلت : إذن نهار الأحد الجاى سيدخل جماعة من رجالى المحافظة فى ملابس مجرمين ، سيمكثون مقيدين ولكنهم يعرفون كيف يفكون أنفسهم ، وسيحبسونهم فى حوش المحافظة قريباً من المدفع.

ـ كويس .

قلت : وابتداء من الساعة الثالثة سننتظر حتى تأتى لحظة ينام فيها الحراس ، رجالى سيقبضون على الضابط الأرمنى ، وحرس أبواب المحافظة ويجرون المدفع .

ـ أنا أمشيه .

ـ كويس ، ونأخذ المدفع إلى خارج المحافظة ، وسيكون هناك كاميون بمطلع خشب منحدر نجر المدفع إلى أعلى الكاميون ، وقبل أن يتنبه رجال المحافظة يكون الكاميون قد اختفى .

سنخفيه فى مكان سنعدّه .

ـ وأنا معك .

ـ كويس ، من ذلك اليوم يصبح راتبك منى ثلاثين جنيها فى الشهر ، عطا سيذهب بها إلى زوجتك .

ـ بس دول كتير يامعلم .

ـ ولايهمك ، خير ربنا كتير .

ـ على بركة الله ، اليوم الخميس ، وعملية الخطف ستكون يوم الأحد ، بس أهم حاجة السرية التامة ، ولا همسة ، وإذا بلغك شىء تبلغنى إياه .

ـ حاضر .

- خذ هذه خمسون جنيها لكى تشترى مئونة لبيتك .

- مفيش لزوم يامعلم .

- مش قلت لك ولا كلمة .

ويوم الأحد تمت العملية ، كنا ١٢ رجلاً ، منا الستة الذين كانوا مساجين ، وحسن عبد السلام طلع أسد ، وعطا راح إلى امرأة حسن عبد السلام وأعطاها ٣٠ جنيهاً وقال لها : إن زوجها سافر إلى الإسكندرية فى مهمة ، وطلب إليها أن يكون الأمر سرًّا ، ولا كلمة لأحد ، حتى أخواتها وأولادها لن يعلموا شيئاً .

والمدفع أخذناه للقرافة التى كان ينام فيها الزنط ، وحسن عبد السلام كان قد سرق معنا كل ذخيرة المدفع ، نحو ١٠٠٠ قنبلة وبعد أسبوع وفى منتصف الليل أخذنا المدفع إلى مكان بعيد فى الصحراء ووضعناه فى خيمة وينام معه فيها حسن عبد السلام ، وتعلمت منه ضرب المدافع ومعى يعقوب الزَّنط .

كنا نعرف أن الإنجليز لن يلبثوا أن ينتقموا من رشاد القباقيبى فرسمنا الخطة ، وأنا رقيت رشاد إلى درجة صاغ وطنى ، واتفقنا على أن يكون ضربنا من أسطح البيوت : واحد يضرب من ناحية والثانى بعدها من ناحية ، خمس نواح ، والمدفع كنا هربناه إلى عطفة فى شارع محمد على فى عربة ، وغطيناه بالبطاطس من كل ناحية . وتصور أن الإنجليز هجموا بعدها بأسبوع . كان غرضهم قتل رشاد القباقيبى ، وإحراق بيته ولكن الصاغ رشاد كان أسداً ، قاد

المعركة وأنا معه ببسالة نادرة .

وقال القائد الإنجليزى عندما وجد أن الضرب من كل ناحية هؤلاء يبدو أنهم جيش ! ، فعلا هؤلاء جيش ، ولكننا نذهب أولا لقتل القباقيبى .

وطبعاً لم يجدوه فى بيته فقتلوا زوجته وابنه وأشعلوا النار فى البيت ، ولكن مدفعنا اشتغل وقنابله ضربت الإنجليز ، وفى أول ضربتين قتلنا قائد الحملة الإنجليزى ، ومساعده وضرب مدفعهم أيضاً ، والناس جمعوا حجارة وصاروا يضربون الإنجليز ، والإنجليز انهزموا واتجهوا إلى القلعة ونحن وراءهم بالرصاص ، ومدفعنا قتل نحو عشرة منهم ، وخرج رشاد من مخبئه وقاد الهجوم نحو القلعة ، ولكن رصاصة أصابته ووقع على الأرض أمامى وأخذناه إلى أجزاخانة فوجدنا أنه مات ، فرقيته لواء .

وكسبنا المعركة ، وأخذنا ٢٥ إنجليزياً أسرى والباقى هربوا إلى القلعة ، وقد استولينا على مدفعهم ، وحملناه هو الآخر على كاميون ومضى الكاميون إلى مخبأ مدفعنا فى الصحراء .

ومصر كلها ذهلت لنصرنا على الإنجليز ، والكل كانوا يدعون لرشاد القباقيبى الذى انتصر على الإنجليز واستشهد فى سبيل مصر ويهتفون باسمه .

والجرائد لم تنشر الخبر ، ولكن الناس طبعوه فى كتيب صغير ، وصاروا يبيعون منه بالآلاف ومن حسن الحظ أنهم لم يذكرونى ،

والمعركة ظلت معركة رشاد القباقيبى ، ويوم جنازته سارت القاهرة كلها فى الجنازة ، والهتاف له ولمصر بلغ السماء ، والإنجليز رأوا أن يتركوها كيلا تصبح ثورة فى مصر كلها ، كانت نيتهم أن يجمعوا معلومات بالجاسوسية قبل أن يهاجموا رجال حركة رشاد القباقيبى .

ونحن لم يمسسنا أحد ، ولم يعرف الإنجليز نصيبى فى الحركة ولم يعلموا شيئاً عن رجب عبد السلام فلم يمسه أحد ، وأراد أن يعيد إلى الألف جنيه ، فقلت له : اصرفها على أولادك ، ولا تتصل بى من الآن .

ـ ولكن أريد أن أكون بطلاً مثل رشاد القباقيبى .

ـ أنت فعلاً بطل مثل رشاد ، وإذا احتجت إلى مال فعندك عطا تستطيع أن تقول له وهو يبلغنى وقررت الاستمرار فى العمل الوطنى .

وقابلت سعد زغلول باشا فوجدته يبكى على رشاد ويقول : شعب أبطال ! ياخسارة ياناس ! هذا بطل كبير عليه ألف رحمه من الله ! .

وأتانى بعد أيام رجل أرمنى وقال اسمع يامعلم خليل ، لماذا لا تترك الإنجليز ؟.

قلت : أنا لا أعرف الإنجليز .

فقال : أنا رجل أرمنى ونحن لا نخشى الإنجليز بتوعك ، ونريد منكم أن تبتعدوا عنا .

ـ نحن ناس وطنيون ولن يهدأ لنا بال إلا إذا أخرجنا الإنجليز من بلدنا كما يقول سعد باشا .

قال الرجل : الإنجليز لا يعرفون شيئاً مما أفعل ، أنا أتصرف هكذا لأن الحركة الوطنية التى تسيرون فيها هنا لا تعجبنى .

ـ ياسبحان الله ! أرمنى نجس لا تعجبه الحركة الوطنية فى مصر ؟. لابد أن نضربك علقة ساخنة حتى لا تعود إلى قلة الأدب مرة أخرى !.

ومن فضائل يعقوب الزنط أنه لا يتأخر فى تنفيذ ماآمره به ، ولهذا فقد ضرب الضابط الأرمنى علقة ساخنة فعلاً ، ولم يتركه حتى قال : دعونى وأنا أبتعد عنكم تماماً ! وتركناه .

وكنت أعرف أن محمود أبو راسين ورجاله يخافون من ذلك الأرمنى ، وبعد أيام مررت على محمود (أبو راسين) فى قهوته ، وكان معى بعض رجالى ، فجلست وقلت له : الآن يامحمود لابد أن تترك الفتونة .

ـ أتركها . وكيف ؟ ولم ؟ .

ـ لأنك جبان ، لقد أخافك هلفوت أرمنى ، وقد رأيت مافعلناه به لأننا لا نعرف الخوف . أما أنت .

قال : هذا لن يتكرر .. المرة القادمة .

فقاطعته قائلاً :

لا توجد هناك مـرة أخرى .. أنت رجل جبان ، والجبان لا يمكن أن يكون فتوة .

قال : ماهذا يامعلم خليل .. ؟ أنت تتحكم فينا ؟.

ـ أجل ، وكل أهل الحى لا يريدونك فى الفتونة .

ـ وإذا لم أتركها ؟.

ـ بل ستتركها ، أنت تعرف ماذا نفعل بأمثالك .

وقال له رجل من أتباعه كبير الرأس جدًّا : الحق يامعلم محمود .. بعد الذى بلغنا ..

فقـاطعـه محمود أبـو راسين قـائلاً : إذن أنتم متـآمـرون مع الجوهرى ..

ـ لا يامعلم محمود ، دى أصول .

ـ إذن فأنتم لن تتركوننى ؟.

ـ لابد أن تعود كما كنت : مبيض نحاس .

ـ ياسلام ؟ وتحددون لى مصيرى ؟.

ـ نعم ، ونحدد لك مصيرك ـ قلت له سمعت يامحمود !!.

وبعد لحظة صمت قال : أترك الفتونة .

قال يعقوب : ورجالك ينضمون إلينا .

وقال الرجل كبير الرأس : وقد عرفت فيما بعد أن اسمه على الحجاوى : هذا يسعدنا ! كلنا نريد أن نعمل مع المعلم خليل أسد الفتوات !.

وعدت إلى بيتى وأنا أردد فى نفسى : أسد الفتوات ؟ هؤلاء الناس الطيبون لا يعرفون ماذا فى رجلى ؟ ، لقد قال لى الطبيب لا علاقة لهذا المرض بالأكل ، ولكننى أظن أنه لابد مخطىء ، فقد تحسنت كثيراً عندما توقفت عن الأكلة إياها ، أجل تحسنت ولكن حالة رجلى اليسرى تسوء ، وأشعر أحياناً بألم شديد ، وربنا يسلم !.

***

وبعد أيام زارنى فى البيت رجل يسمى البنان ، إنه من أغنى رجال الحى ، وقد سمعت أنه يريد أن يرشح نفسه لمجلس النواب ، وقال لى : سمعت أنك تريد ترشيح نفسك للبرلمان ، وأحب أن أقول لك : إن هذه لو كانت نيتك فأنا شخصياً مستعد لرفع اسمى من بين مرشحى الوفد للمجلس عن حى الجمالية .

ـ لا ياسيدى العزيز أنا بعيد جدًا عن العمل السياسى ، ولو أننى شخصياً وفدى .

ـ سمعت ذلك من النقراشى بك ، وهو يعتقد أن عصر الفتوات

قد انتهى وحل محله عصر النواب ، نحن الآن فى معركة سياسية مع الإنجليز ، والفتونة لا تخيف الإنجليز ، ولو أننا نعرف أنك أنت بالذات لك صراع عنيف مع الإنجليز .

ـ لا عنيف ولا حاجة ، ولكن ـ إن جئت إلى الحق ـ فإن الإنجليز جبناء ويالیتنا نستطيع أن نواجههم فى الميدان .

ـ نحن نستطيع مواجهة بريطانيا عسكريًا لو كانت لدينا حكومة غيرالحكومة الراهنة ، رجال السياسة والسراى مش تمام ، وقد تعبنا من الصراع السياسى الضعيف الحالى مع الإنجليز ، ونريد أن ندخل معهم معركة حاسمة .

قلت : نستطيع والله ، وعيب أن تكون كل القوة البريطانية التى تحكم مصر لا تزيد على أربعين ألف جندى ، ونحن نستطيع تجنيد أربعمائة ألف .

وفى نهاية الحديث قال الرجل : مادمت لاتنوى ترشيح نفسك فهل أطمع فى أن تساعدنى ؟.

ـ مادمت وفديًا فأنا فى خدمتك .

وبعد أن انصرف قلت لنفسى، على فكرة : النقراشى باشا عنده حق عندما قال إن عصر الفتونة انتهى ، أما نحن فقد دخلنا فى عصر الصراع السياسى ، وأرجو أن يعرف النقراشى أننا فى خدمة سعد باشا .

والحقيقة أننى كنت قد شبعت من أعمال الفتونة ، إن كل ما كان يجذبنى إليها هى مكاسبها ، ثم إننى بطبعى كنت أحب صراع الفتوات ، فأنا إذا دخلت المعركة لا أدرى ماذا كنت أفعل ، كنت أنسى كل شىء وأحطم كل مايقف فى سبيلى فى اندفاع غريب كأن الناس يرهبونه ، ولكن هذه هى رجلى تتعبنى الآن وأخشى أن تزداد سوءاً مع الزمن .

غير أن الفرصة أتيحت لى لأدخل فى أكبر معركة دخلتها فى حياتى ، فإن المعلم حمدان أبو كرشة ، وهو أحد فتوات الجمالية كان يستعد للاحتفال بزواج ابنه أنور ، وكان يريد أن يجعل فرح ابنه أعظم فرح فى تاريخ الجمالية ، فطلب من التجار مبلغاً ضخماً ، حوالى خمسمائة جنيه ، والتجار وجدوا أن ذلك كثير فقصدونى فرأيت أننى لابد أن أتدخل ، والحق أنه لم يكن من السهل لقاء المعلم حمدان أبو كرشه فقد كان فتوة مخيفاً ، وكان رجلاً بلا ضمير وقد سبق أن التقيت به فى معركة عنيفة وتغلبت عليه ، ولكنى دخلت السجن بعد هذه المعركة ، ولهذا فإننى لم أشعر بارتياح لما قاله لى التجار ، ولكن لا مفر ، كان لابد أن أخوض معركة مع حمدان ورجاله ، لأن هؤلاء التجار كانوا أناساً طيبين كرماء ، ولم يسبق أن طلبت منهم شيئاً وتأخروا فى الاستجابة ، ويعقوب الزنط قال : ياسيد المعلمين ، أظن أن الوقت قد حان لكى نخلّص الحى من حمدان ورجاله ، هذه المرة سنضربه ونضرب رجاله علقة تكون فيها نهاية هذا الرجل وأمثاله .

وقد قـدرت منذ البدايـة أن المعركـة ستكون حاميـة جداً ، لأن المعلم (حمدان أبـو كرشـه) لم يكن فى الحقيقة فتـوة ، ولكنه كـان لصًا ، فلم يكن يتمتع بـأى احترام وإن كان مَهيباً فى المنطقـة كلها ، وقد بدا لى أن أضرب هـذا اللص علقة ساخنة وأن يكـون هذا نهاية طيبة لعملى فى الفتـونة ، فقد كـان لابد من تطهير الجو منـه ، ولأمر ماأحسست أن القضاء عليه لن يكون إلا على يدى .

وأحـــب أن أقول هنـــا : إن معركة مع رجـــل مثل (حمدان أبو كرشة) يمكن أن تكون معركة محترمة ترفع مكانى فى الحى إلى مستوى رفيع ، فهـذا لص ورجاله لصوص ، وأنت عنـدما تخوض هـذه المعركـة تعرف أنك لن تترفع عن شىء ، فأنت لابـد أن تضرب بكل مـاتستطيع حتى تقضـى على الخصم تمامـاً .، ومع الفتـوات الآخرين هناك قواعد وأصول ،أمـا هنا فلا قواعد ولا أصول ، ومنذ البداية كنت أفكـر فى الطريقة التى أخوض بها هذه المعـركة وأخرج منها بأقل الخسائر .

والخطة التى رسمتها ، واتفقت عليها مـع يعقوب الزنط ، كانت تتلخص فى الهجـوم المبـاشر على هذا الـرجل فى مقهـاه وضربـه مع رجاله بكل عنـف ، وبالفعل ذهبنا بعد المغرب إلى المقهـى الذى كان يجلس فيه هذا الرجل ، ووجدته هناك ، وبعد التحية قلت له : ماهذه الأموال التى طلبتها من التجار ؟.

ـــ وهل هذا شغلك ؟ هـذا عملنا ، ونحـن طوال حيـاتنا نعـامل

التجار بهذه الطريقة .

ـ ولكننا لا نسرق التجار لكى نزوج أولادنا .

ـ نحن لا ننهب التجـار ، هؤلاء كلهم لصـوص ونحن نأخـذ حقوقنا منهم ، وأنت أيضاً تفعل ذلك .

ـ أنا لاأفعل ذلك قط ، لا يمكن أن يفـرض الفتوة على التجـار عقوبة مهما كان السبب ، نحن أصدقاء التجـار وحماتهم .

ـ لقـد طلبت الفلوس من سيـد الزغبى نقيب النحـاسين ، وهو رجل عنده ألوف ، وكل النحـاسين أغنياء و ٥٠٠ جنيه ليست شيئا بالنسبة لهم .

ـ اسمع يامعلم حمدان ، الفلوس فلوس ، ونحن ليس لنا الحق فى أن نطلب من التجار مالاً ، إن التجار هم الـذين تعودوا أن يدفعوا للفتوات ، وهم يقومون فى مقابل ذلك بخدمات كبيرة للناس ، أما أن تفـرض عليهم غـرامـات على مـزاجك فهـذا لا يجوز نحن نشبـه البـوليس يامعلم حمدان ، والعـلاقـة بيننا وبين التجـار ينبغى أن تكون علاقة صداقة واحترام ، أما النهب فهو عيب ، عيب كبير .

ـ تريد أن تقول إننى أنهب التجار ؟ .

ـ نعم ، هذا هو ماتفعله .

ـ إذن فهذا ماأفعله وسأفعله فأرنى شطارتك .

ولم يكد يقول هذه العبارة حتى أطبقت بيدى على زمارة رقبته ،

ورفعته ووقفت به حتى اختنق واستغاث ، وأقبل رجاله ليساعدوه فطحنا فيهم ، ويعقوب الزنط أظهر بسالة غير عادية ، وارتمى حمدان على الأرض شبه مغمى عليه ، ودارت المعركة بأعنف صورة حتى ضربنا كل رجال أبو كرشة وحطمنا القهوة ، ورجالى وجدوا فى جيب واحد من رجال حمدان مائة جنيه وقطع مصاغ فأخذناها ، وأخذنا من جيوب حمدان أكثر من ثلاثمائة جنيه ، والبوليس أتى وتدخل ، ولكن يبدو أنه سرهم أننا فعلنا ذلك ، فلم يمسكوا منا أحدا وتجمعنا وانصرفنا بعد أن قضينا على هذا اللص وعصابته قضاء تامًا.

لا تتصور أثر ذلك فى الحى كله ، كان (حمدان أبو كرشه) كما قلت لصًا ، وقد استمر فى أعمال اللصوصية تحت ستار الفتونة أكثر من عشر سنوات ، فكان القضاء عليه خدمة للحى لا تقدر ، وقد ضربنا هؤلاء اللصوص وحطمنا مقهاهم إلى درجة أنهم لم يعودوا إلى الاجتماع مرة أخرى قضينا عليهم فعلاً .

هذا العمل أعجب أهل الحى إعجاباً عظيماً ، وقضائى على حمدان الحرامى بيدى ، جعلنى فعلاً فتوة شارع محمد على كله ، وفتوة حى الحسين كله ، وإيرادى وصل إلى ٥٠٠ جنيه فى الشهر من التجار ، كانوا يدفعونها طواعية ، وكانت أم عبد الحميد هى أمينة الصندوق ، كانت تتسلم النقود منهم بالذوق ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر كانت تأتى وهى فى آنق ثيابها ، وقد ربطت على

رأسها منديلاً بقوية مزيناً بالترتر ، وتقرأ على الحساب وأنا آكل ، ثم تأمر الخدم أن يأتوا بالماء الدافىء فأغسل يدى ويغسلون رجلى وهى مستمرة فى قراءة الحساب ، ونصل إلى نهايته فتقول لى : فايض معانا الآن ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه ، وغداً أضعها فى حسابك فى صندوق البريد ، وأحياناً تقول : هل تأذن لى فى أن آخذ منها خمسين أو مائة ؟ لأننى أريد أن أشترى حلتين نحاس أو طقم أطباق سفرة ، فأوافق ، وتقول : وإذا تفضلت فأنا فى حاجة إلى هدوم وسآخذ مائة جنيه لأشترى فستاناً وملابس داخلية من شيكوريل وأقول لها :

خذى عينى ياست الكل ، وهل عندى فى الدنيا أغلى منك ؟

وفى ذات مرة قلت لها : أنت والله ياأم عبد الحميد أغلى ما فى حياتى ، أنت جمال الدنيا كله ، وأنا أحياناً أعتدى عليك وأتزوج نساء أخريات ، ولكن هذا ضعف منى وفراغ عين ، وأحيانا أكون مضطراً إلى ذلك ولكنه لا يمس حبك .

فتقول فى رقة : اعمل اللى أنت عاوزه يامعلم بس خلينى معاك .

ـ نفسى أترك كل شىء آخر لكى أتمتع بالحياة معك .

ـ إن شاء الله ياسيد الرجالة ، المهم أن الباقى الذى سأضعه فى صندوق البريد فى حسابك مائتا جنيه .

ـ معلوم ولكنى سأنام الآن ، وعندما أستيقظ تأتينى لتدلكى لى رجلى فهى تؤلمنى .

ـ سلامتك ياسيد الكل ، حاضر ! من عينى دى وعينى دى .

وجاءها مرة رجل وأنا غائب ورجاها فى أن تشترك معه فى ضربى علقة ، إنه مساعد أحد الفتوات ، فقالت له : انتظر .

وخرجت وبعثت تطلب يعقوب الزنط ، وحكت له الحكاية ، ويعقوب دخل وضرب هذا الرجل علقة ساخنة حتى كاد أن يقتله ، ودس يده فى جيبه وأخرج خمسمائة جنيه .

قال الرجل : لقد أتيت بها من المعلم عنانى للمعلم الجوهرى .

وأخرجوا الرجل ورموه خارج البيت ، وانتظرت أم عبد الحميد أن يعود إليها يعقوب فلم يعد ، فأرسلت تطلبه ، وجاءها فقالت له : فين الخمسمائة جنيه يايعقوب ؟..

ـ دول يبقوا بتوعى وبتوعك .

قالت : دى فلوس المعلم الجوهرى ، لا أنت ولا أنا .

فقال لها : نعطيه ٣٠٠ وآخذ أنا مائة وتأخذين أنت مائة .

ـ الفلوس تسلمها كلها للمعلم الجوهرى ، فقد سمعت الرجل يقول : إنها له.

ـ ولكننى أنا الذى ضربت وأنت التى اسْتَدْعَيْتينى .

ـ نحن كلنا أتباع المعلم الجوهرى ، هات الفلوس ، وأعطاها الفلوس وخرج .

وعندما جئت حكت لى الحكاية ، فاستمعت فى هدوء ، وأحضرت يعقوب وقلت له : لماذا تصنع ذلك يايعقوب ؟.

قال يعقوب : معلهش يامعلم ، أصل مراتى عيانه .

ـ وهل أنا أحوش عنّك مالاً .

ـ لا يامعلم ، هذه غلطة ..

ـ خلاص ، ولكن لا تكررها ، وهذه مائتان منى لك لتعالج امرأتك .

وأخذ يعقوب الفلوس وقلت لأم عبد الحميد : خذى هذه الثلاثمائة لك .

قالت : لا يامعلم ، الفلوس دى فلوسك ، وأنا معك لا أحتاج شيئاً.

فقال وهو على وشك الغضب أنا عندما أقول لك شيئاً تعمليه ، هذه الفلوس لك .

قالت : حاضر !.

ولكنها فى اليوم التالى وضعتها فى حساب المعلم ووضعت الإيصال على السفرة . فأخذها وابتسم وقال : مافيش فايدة دى ملاك .. ثم ناداها وقال لها : برضه عملتى اللى فى بالك !!.

ـ لم أعمل غير الحق .

- إذن تضعين رجلك على السفرة هنا ، ووضعت رجلها فقبلتها وهى بكت وأنا جلست فى السرير ، ومالت على رجلىَّ تقبلها ودموعها تجرى.

ثم حدث بعد ذلك أننا ضربنا واحداً من البكوات الذين يعملون فى السياسة ، وكان عميلاً من عملاء الإنجليز ، ضربناه وأخرجناه من بيته بالفانلة واللباس ! وكان الوفديون قد أفهمونا أنه كلب خائن يتعاون مع الإنجليز . وقد ضربناه وأصحابه ضرباً مبرحاً ، وقد تحدثت مصر كلها بذلك .

وما كان الإنجليز أو الحكومة ليسكتان عنا بعد أن ضربنا رجلهم الأنيق وخلعنا عنه ثيابه وأخرجناه بالملابس الداخلية ، وكان هذا الرجل - سليم بك الجمال - يمثل فى نظرهم طرازا من ضعاف الرجال الذين يبيعون أنفسهم ليحققوا للحكومة ماتريد ، وأظن أنه لم يحدث أبداً أن أهين رجل من هؤلاء على النحو الذى فعلناه له ، ولكن الميزة الكبرى التى يتميز بها الإنجليز هى الصبر ، فهم لا يسرعون فى التصرف قط ، وإذا كان لابد أن يعاقبونا فإن ذلك سيكون فيما بعد ، وعلى أى حال فإننا نحن لم نشعر بخوف ، فكلنا والحمد لله مستعدون لمواجهتهم ، وقد نبهت على رجالى بأن يضبطوا أعصابهم ، وأن يتوقفوا عن أى محاولة للانتقام من الإنجليز عن طريق إثارة الحكومة أو إغضاب رجالها .

ولكنى لاحظت أن البيت ازدحم بالرجال مرة أخرى ، وكان

الرجال الذين تجمعوا فى البيت من ذلك النوع الردىء الذى لا أحبه ولا أستطيع الإفادة منه . وتحدثت مع أم عبد الحميد فى ذلك ، ووجدت منها ترحيباً بالخلاص من معظم أولئك الرجال ، خاصة وقد بلغنا أن بعضهم غير مستقيم ولا تشرفنا معرفته .

وأم عبد الحميد تحدثت فى الأمر مع يعقوب الزنط رئيس جماعتى ، ويعقوب سألنى فقلت له : شوف يا يعقوب ، عندنا فى البيت الآن فوق العشرين رجلاً ، ونحن لسنا فى حاجة إلى معظمهم وأنت تعرف من له قيمة منهم وتستبقيه وتخلصنا من الباقى . خاصة أن هذا العدد الكبير من الطفيليين يأكلون كل ما يتجمع لدينا من الطعام ، وبعضهم لا يكتفى بالأكل ، بل يأخذ معه شيئاً إلى أسرته . فوعد يعقوب بالخلاص من هذا النوع الذى لا يتفق معنا من الطفيليين ، وخلصنا يعقوب من بعضهم فعلاً ، وكان عنيفاً فى بعض أعماله ، ولكننى لم أنكر عليه شيئاً ، فلم نكن فى الحقيقة لنستطيع الخلاص منهم إلا بالعنف ، وقد أسرف فى العنف مع واحد منهم وقال لى إنه رجل منحط ، ولا سبيل إلى الخلاص منه إلا بهذه الطريقة ، ولم يبق من الجماعة عندنا إلا ستة رجال ، وكان ثلاثة منهم لهم بيوت وعائلات ، فلم يكونوا يزحمون البيت ، وتمتعنا فى النهاية بالهدوء الذى كنت أتمناه بعد أن بلغت ذلك المستوى .

ولم ألبث أن تبينت أننى أحسنت صنعاً ، فقد زارنى ذات صباح مرشح الوفد للنيابة عن الجمالية واسمه البنان بك ، وكان رجلاً

محترماً فعلاً ، وقد أبلغنى أن النقـراشى بك سعد بما فعلناه بسليم بك الجمال ، وأن هـذا الـرجل كـان يستحـق أسـوأ من ذلك ، ولكن ماجرى لـه على أيدينا كان فيه الكفـاية . والبنان بك طمأننى إلى أن الإنجليز لم يغضبوا غضباً شديـداً لما جرى لرجلهم لأنهم فى الواقع لم يكونـوا يحبونه ، وقـد أدى لهم خدمات وأخـذ منهم مقابل ذلك مالاً ولم يعد له عندهم شىء .

وأضاف البنان بك : إن النقراشى بك يسعده أن يرانى وعندما التقيت بالنقـراشى بك فهمت أنه ـ والـوفد كله ـــ غير سعداء بسير المعركة الانتخـابية ، وأن سعد باشـا كان يتطلع إلى حماس شعبى أكثر مما كان يجرى فى تلك الأيام ، وسألنى إن كنت أحب أن أرشح نفسى لمجلس النواب عن باب الخلق ، فقلت له إن الأمر أمره ، أما إذا كان على أنـا فأنا فى الحقيقـة لا أحب السياسـة ولا أستريح للكلام الكتير ، فابتسم وقال : أهذا رأيك فى السياسة ؟ كلام كتير ؟ .

ـ قصـدى البرلمان ، فإنهم يتجمعون فيـه للكلام ، وأنـا رجل نشيط أحب الحركة وأخشى ألا أحسن الكلام .

فقال : على الأقل أنت رجل تقول الحق كما تراه وهذا يعجبنى ، ولكن المهم هـو أن تظل معنا وأن تتأكـد أننا مستعدون لتقـديم أى مساعدة تحتاجها .

قلت : أما أننى معكم فهـذا مؤكد ، لأن سعد بـاشا رجل عظيم حقًّا ، ويكفى أنه صفع الإنجليـز على وجوههم ، ولم يكترث بسجن

أو نفى ، والله سبحانه يمنحه الصحة والعافية ويساعدنا على القيام بحقكم ، ولكم أن تطلبوا منى ماتريدون فستجدوننى فى خدمتكم .

قال : هل تسمع عن رجل يسمى الربيعى ؟.

قلت : نعم توفيق الربيعى فتوة باب الخلق ، وكلنا نعرفه .

قال : هذا الرجل يبدو أنه « مش مضبوط » .

ـ كلنا نعرف أنه « مش مضبوط » ولكنى لم أكن أهتم به لأنه بعيد عنى ، ولكن إذا كان يحاول الآن أن يقوم بشىء ضد سعد باشا فأنا مستعد لتأديبه ، ومأأسمعه عنه لا يبرر ادعاءه أنه فتوة باب الخلق ، فنحن لا نعرف عنه شجاعة ولا رجولية تبرر الفتونة التى يزعمها لنفسه ، وإذا أراد سعد باشا أن نقصف رقبته فنحن مستعدون .

فسكت لحظة ثم قال : الحقيقة أن هذا الانسان يسعى لترشيح نفسه لمجلس النواب ضمن حزب الأحرار ، ونحن لا نخشاه لأن مرشحنا أمامه رجل محترم جدًا وسيمحوه محوا ، ولكنى أنا شخصياً لا أقبل ما أسمع من كلام غير مقبول منه يقوله عن سعد باشا والوفد .

قلت : إذا كان الأمر كذلك فدعه لى وأنا أتصرف معه بطريقة تعجبك إن شاء الله .

وعندما نهضت لأمضى قلت له : ياسعادة البيه . إذا كنت

تستطيع أن تحدد موعداً لى مع سعد باشـــا كنت شـــاكراً لك ، أنا لا أريد منـه شيئاً ولكنى أحب أن أرى هـذا الرجل العظيم وأتحدث معه وأسمع صوته .

ـ هذا أمر بسيط جدًّا يامعلـم ، وسعد باشا يسره أن يرى رجلاً مثلك فعل مافعل بسليم الجمال .

قلت : أشكرك وأرجو أن ندع هـذه المقابلة إلى مابعد التصرف فى موضوع توفيق الربيعى لكى أذهب إلى سعد باشا بشىء جديد .

ـ كما ترى ، على أى حال نحن تحت تصرفك .

وبعد أن عدت إلى بيتى قلت ليعقوب الـزنط : إيه رأيك فى توفيق الربيعى؟.

ـ ماله ؟.

ـ يظهر أن ذلك الرجل يقل أدبه على سعد باشا والوفد .

قال : هذه مسألة تهم الوفد ، ومالنا نحن ومالها .

ـ قصدى أنك تعرف أن أوان الفتونـة قد فات ، وإذا كان ولابد أن نظل فتـوات فلابـد أن يكون لنا دور فى الحركـة الوطنيـة ، فإن البـوليس تحسن جدًّا الآن ، ولم نعـد نستطيع اليوم ـ كما كنا نفعلـه بالأمس ، فإذا نحن دخلنا الحركة الوطنية أصبح للفتونة دور ، وإذا كان رجل مثل توفيق الربيعى يضر البلـد فلابد أن نقوم معه بشىء خاصة وقد تكلم النقراشى بك معى فى الموضوع .

فقال : شوف يامعلم : توفيق الربيعى « مش حاجة » وإذا أردنا القضاء عليه فعلنا ذلك دون صعوبة كبيرة ، ولكن إذا كنا نستطيع أن نتجنب ذلك كان أحسن ، لأنه فى الحقيقة صديق لنا وهو يقدم لنا خدمات لها قيمتها بين الحين والحين ، وأنت بالذات لك مركز عظيم فى نظره .

قلت : شوف يايعقوب ، لقد قلت لك إن الفتونة بالصورة القديمة لم يعد لها دور ، ومركزنا يتلاشى يوما بعد يوم بسبب الحركة الوطنية التى يسير معها كل شىء فى مصر ، وقد أصبح لنا مركز ممتاز نتيجة لما فعلناه مع سليم بك الجمال ، فإذا كنا نستطيع أن نفعل شيئاً شبيها بذلك مع توفيق الربيعى ارتفع مركزنا فى نظر سعد باشا وأصبحنا شيئاً محترماً فى نظر الوفد .

فردّ يعقوب : إذا كان هذا رأيك فلابد أن نقوم بشىء ولابد لى من تفكير يومين تلاتة فى ذلك الموضوع .

وبالفعل تحدث إلىَّ يعقوب فى موضوع الربيعى وقال : قد تبينت أنه رجل عجيب ، فليس عنده شىء من الشرف أو الوطنية أو الشجاعة ، ولكنه مع ذلك قوى ومخيف ، ثم إنه غنى جداً لأنه بدأ حياته رئيساً لعصابة لصوص ورثها عن أبيه ، وقام بعمليات لصوصية منكرة ، ثم أعلن نفسه فتوة باب الخلق وجزء كبير من شارع محمد على ، ونهب التجار نهباً ، وها هو الآن يريد أن يدخل ميدان السياسة ، وياليته يسير مع سعد باشا ، ولكن خلقه الذميم

جعلـه يميل إلى أعداء سعـد وهاهـو اليوم يفكـر فى ترشيح نفسـه لمجلس النواب ، ولابد أن يوقف عند حده ، وسعد باشا يرى أن هذا عملى أنا ، وقال يعقوب إننا إذا أردنا إزالته من الزعامة أزلناه .

وبالفعل ضربنـاه علقة ساخنة فى خناقـة لها العجب ، وبعد أن ضربناه وأخرجناه من الفتونة أعجبتنـى ابنته إيناس ، وكانت شابة حلوة ، وهى الأخرى أعجبت بى ، وتـزوجنا ، وأبوها فـرح بالزواج ورقص فيه ، ولكنه ابتعد عن السياسة والفتونة .

وعاشت معى إيناس أربع سنوات ، وكانت فعلاً زوجة ممتازة ، ولكنها كـانت تختلف عنى وعمن حولى اختلافاً بينـا ، كانت تحس فيما أظن أنها تنتسب لأسرة رفيعـة مـن أبنـاء الأصـول وبنـاتها . وكـانت تتصرف تصرفا يعجبنى ولكننى لم أفكـر قط فى السير على طريقتها ، ولا هى عـاشت فى بيتنا إلا أياماً قليلة ، فقـد كان قصرها جميلاً ومـريحاً جداً ، وأعتقـد أنها خشيت من أن يطول مقـامها فى بيتى خوفا من أم عبد الحميد ، ومما لاشك فيه أنه إذا كان قد حدث تصـادم بين الاثنتين لكـانت النتيجـة غير سـارة لى ، ولكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ ، ثم إن أم عبد الحميد ـ تقديراً لى ـ حرصت ألا تتحدث عنها حـديثاً سيئاً أبداً ، ولعلهـا كانت تحس أن مصيرى فى النهـاية إليهـا ففضلت الصبر ، ولابد أن أقـول إنها كانت صبـورة ومازالت صبـوراً إلى اليوم وهذا الصبر كان نعمتهـا الكبرى ، وكان نعمة على ، ويرجع إليه الفضل فى أننى عدت إليها وحدها دون غيرها

فى نهايـة الأمـر ، أما إينـاس فاعتقـد أننى أعجبتهـا كما أعجبتنى ، وكنت أسعد بها كما كانت تسعد بى ولكننا كنا من عالمين مختلفين ، وقد أحسست وأنـا معها أن واحـداً من أبناء جماعتهـا أعجبها كما أعجبته هى ، وأنـا شخصياً كنت راغبـاً فى الخلاص منها رغم حبى لها ، ولكنى تـركت الخلاص منهـا إلى الوقـت المناسب فـاستمـرت الحياة بينـى وبينها وكذلـك مع أم عبد الحميـد وجاء الوقـت الذى تخلصت فيه من إينـاس وعندما انتهى أمر إينـاس وطلقتها شعرت أننى عدت أخيراً إلى المرأة التى تحتمل كل متاعبى خاصة وأن رجلى اليسرى بـدأت تـؤلمنى فعلاً وأحسسـت أننى فى حاجـة إلى امـرأة تخلص فى خدمتى .

وخـلال هذه الفترة مضيت فى طـريق الفتـونـة وكانت لى فيـه ضربات ضخمة منها واحدة أعتقد أنها أكبر ضربة فى تاريخ الفتونة ومازلت إلى يومنا هذا أذكرها بفخر .

وهذه الضربة كانت ضد فتوين آخرين ، واحد فى حى الخليفة ، والثانى فى حى القلعة ، ولقد ظنـا أننى غنى جدا ، لأننى فعلاً أعيش عيشـة الأغنيـاء فى بيت إيناس ، فقـررا الهجـوم على القصر ونهب الأموال التى كانا يظنان أنها مكدسة هناك .

وبلغتنى أخبـار المؤامرة عن طريـق جواسيسى ، وقد غـاظنى جـدًا أن الاثنـين كانا من أحقـــر الناس ، فالأول : عوضيـن العتر (فتوة الخليفة) كان بياعا على عربة يد ، وكان لصا وقد جمع أناسا

مثله لا أخلاق عندهم وكون عصابة وصار يفرض ضرائب على التجار ، ثم سمى نفسه فتوة ، ولكنه كان لصاً وقاطع طريق .

والثانى : عبد الله قرشانة (فتوة القلعة) كان خادماً واعتدى على سيده وجمع بقية الخدم وكون عصابة وفعل فعل صاحبه وأصبح هو الآخر فتوة . وقد شعرت — وأنا فتوة - أن وجود هذين الشخصين فى قائمة الفتوات إهانة لى ، ولكن حيث أنهما لم يتعرضا لى فقد تركتهما لأهل الخليفة والقلعة ليتصرفوا معهما .

والآن أسمع أنهما يديران على ، فازداد غيظى ولكنى أمسكت أعصابى وتفاهمت مع يعقوب الزنط ، واتفقنا على أن نجمع أكبر عدد من رجالنا فى بيت إيناس وننتظرهم فى سكون حتى يهجموا علينا .

وبالفعل هجموا ، وكانت ليلة مقمرة ، وكان عدد رجالهم كثيرا ، فتركناهم يهجمون على الغرفة التى كانا يظنان أنها خزينة المال والجواهر ، وبعد أن دخلا مع رجالهما وفتشوا ولم يجدوا شيئا وخرجوا وجدونا فى انتظارهم .

وكنا عشرة رجال وأنا على رأسهم ، ولكننى لم أدخل المعركة لأننى فضلت أن أقوم بدور القائد ، وأترك يعقوب الزنط يقود القتال ، وكنا قد تسلحنا يومها بالسكاكين ، وكانت سكاكين رهيبة ولمسة منها تجرح وكالعادة هجمنا كالقضاء المستعجل ، وهؤلاء الناس فى العادة لا يعرفون السرعة فضربناهم وقبضنا على أربعين

منهم وكتفناهم وقطعنا من أيدى ثلاثين منهم أصبع السبابة لكل واحد وتركناهم ، أما العشرة الباقون فكانوا الرؤساء ومنهم الفتوتان ، وهؤلاء قطعنا الذراع اليمنى لكل منهم ، وخلعنا ملابسهم إلا اللباس وخرجنا بهم إلى حى الخليفة فطفنا بهم الشوارع ثم مضينا بهم إلى حى القلعة وقمنا بنفس الزفة وكانت فضيحة ، انتهى بها أمرهما ولم يعد هناك فى حى الخليفة وحى القلعة فتوة ، وقد أخذنا كل ما وجدنا معهم من أموال وجواهر كالخواتم وكالعادة فرقت كل شىء على الرجال ولم آخذ أنا إلا خمسين جنيها ، أما بقية الرجال فلم يقل ماأصابه الواحد منهم عن مائتى جنيه فزاد تعلقهم بى ، وأصبحت فعلا فتوة فتوات مصر ، وذهبت لزيارة سعد باشا ، وكان مريضا مرض الموت ، وتعرفت على مصطفى النحاس قدمنى له النقراشى وتبرعت بألف جنيه للوفد ، وعندما مات سعد باشا فى أغسطس سنة ١٩٢٧ أقمت فى باب الخلق أعظم « ميتم » لسعد باشا عرفته القاهرة .

ثم بلغنى : أن إيناس كانت على علم بتدبير عوضين العتر وعبد الله قرشانة فتوتى الخليفة والقلعة . وهذه المرأة الغبية كانت تظن معهما أن عندى ملايين فطمعت فيها ، وكانت كما قلت تميل إلى شاب من جماعتها فأبعدته بطريقة مهينة ، أمسكنا به ومددناه وضربناه على قدميه خمسين « خرزانة » وجلدناه على مؤخرة ظهره مائة خرزانة ، وأطلقنا سراحه فى ملابس شحاذين حافياً ، وخرج ولم يعد طبعاً ، وهذا أغضب إيناس طبعاً ولكنها لم تقل لى شيئاً فقد كانت ترهبنى .

هذه المرأة ـ إيناس ـــ كما قلت كانت حلوة جداً ، وكنت أستمتع بالجلوس معها فى غرفة نومنـا فى قصرها ، وكانت أنيقة جدًّا ، وكان مطبخها عظيماً فكنا نبقى معاً نأكل ونتحدث ونتسامر وكانت تظهر لى إخلاصاً شديداً .

ولهذا فقـد ضايقنى جـدًّا أن تكون لها يـد فى مـؤامرة فتـوتى الخليفة والقلعـة ، وقررت فى النهـــاية أن أســتمع إلى كـــلام أم عبـد الحميد التى كـانت لا تحبهـا قط . ولكنها صبرت لأنها كـانت تحبنى وكانت واثقة من أننى سأعود إليها فى النهاية .

وعندما قررت أن أعاقب إيناس كنت معها ذات ليلة فى غرفتنا ، وكانـت قد أعـدت طعاماً شهيـاً ، وكانت تشرب الخمـر أما أنـا فلم أشربها فى حيـاتى ، وبعـد أن أكلنـــا واستمتعنـا وتكلمنـا وكنـا فى منتصف الليل قلت لها : هل تعرفين عوضين العتر وعبد الله قَرَشَانة فتوتى الخليفة والقلعة سابقاً ؟.

فذهلت واضـــطربت وعرَفْتُ أن مـابلغنى عنها حق ، وقيـالت لا والله لا أعرفهما .

ـ لماذا تكذبين ياإيناس وأنت تعرفين أننى لا أحب الكذب ؟.

قـالت : أقول الحق ، كنت أعـرفهما ولكنى والله العظيم لايـد لى فيما قيل لك من أننى اشتركت معهما فى مؤامرة القصر .

ـــ لماذا تكـذبين ياإينـاس ، أنت تعـرفين الآن أننى أعـرف كل شىء ؟.

قالت (وهى فى أشد حالات الخوف) : والله كنت مظلومة .

ـ ومن الذى ظلمك ؟ خايفه من إيه وأنت معى وتعرفين أن الذين معى لا يخافون أحداً .

ـ أهه ، كنت خايفة ! .

ـ ياكذابة يانصابة ، لقد قالت لى أم عبد الحميد عنك كثيرا ، ولكننى لم أصدق بل كنت أحبك أكثر مما أحبها .

ـ والله العظيم هى التى دبرت ذلك كله ضدى .

ـ لا والله مافعلت هذه السيدة الكريمة شيئاً ولا قالت شيئا لأنها تحبنى وتحترمنى وتصبر علىّ ولكنى سأناديها الآن وسأدعها تحكم عليك .

ـ أرجوك وأقبل يدك ورجلك .

قلت : إنها لن تقطع رقبتك !.

وأرسلت خادمة أتت بأم عبد الحميد وقلت لها : الآن ثبت لى أنك على حق أيها الزوجة الكريمة المخلصة ، فهذه المرأة خائنة وكان لها يد فى مؤامرة العتر وقرشانه .

ـ لم أكن أعرف ذلك ، ولكنى متأكدة من أنها تشترك فى كل أمر يضرك ، لأنها امرأة شريرة وخاسرة وفاسدة وبتاعة سهرات ولعب وقمار وخمر .

ـ حســـناً يا أم عبد الحميـد الآن أنا أطلقها والتفت إلى إيناس وقلت : أنت طالق ثلاثاً وتتنازلين عن كل حق لك قبلى .

ـ أتنازل بس سيبونى أخرج على رجلى .

ـ ستخرجين ولا تخافين والآن بمـــاذا تحكـمين عليهـا ياأم عبد الحميد ؟ .

ـ أحكـم عليها بأن نقـص شعرهـا ونحلق رأسها وحـواجبها بالموسى ونـدعها تخلع ملابسها وتلبس مـلابس شحاذين وتخرج من بيتنا حافية هكذا .

فقالت إيناس : هذا ليس بيتكم إنه بيتى .

قلت : أعرف ياستى ، هذا ليس بيتنا ، ستخرجين بهذه الصورة وسنلف بك الشوارع وعندما تعودين لن تجدينا .

وفعلنـا ذلك كلـه بها ، وخـرجت إلى الطريـق محلوقـة الـرأس والحواجب بـالموسى ، وكانـت حافيـة وبمـلابس تقرف ، ورجـالى طـافوا بها فى حى جـاردن سيتى الـذى كان فيـه قصرها ، وكـانت فضيحة . وموكبهـا وصل إلى حى محمد على ، وفى أثناء ذلك جمعت هدومى وأخـذت أم عبد الحميـد ورجالى وكل مـاكان فى القصر من نقود وجواهر وخرجنا وعدنا إلى بيتنا فى شارع محمد على .

وكنت أعـرف أن هـذه المرأة لـن تسكت ، فهى من أسرة غنيـة وكبيرة وأقـاربها فى وظـائف كبيرة ومنهـم لـواءات ولاشك فى أنها ستدبر ضدى شيئاً .

ولكنهـا لم تجرؤ على شيء ، لـزمت دارها حتى طلـع شعرهـا واستطاعت أن تقابل الناس ولم تقل شيئاً على ما أخذناه من بيتها ، وقد نصحهـا أحد أقـاربها بالسكـوت ، وكان يعـرف أن رجلاً مثلى ليس سهلاً فسكتت ومرت الحكاية كلها بسلام .

وعلمت أن رجلاً يسمى رجائى بك لطفى يدير على الوفد ويريد أن يرشح نفسـه للبرلمان فى حزب الشعب وهو حـزب الملك فقررت ضربه وعمل فضيحة كبيرة له .

واتفقت مع يعقوب الزنط على أن نقوم بغـزو هذا الرجل فى بيته وقريتـه ، واخترنا خمسـة من أحسن رجالنا ليكـونوا معنـا ، فكان جيشنا مؤلفاً من سبعة أشخـاص أنا ويعقوب على رأسهم . وقررنا ضربه فى بيته فى قريته حتى تكون الفضيحة كاملة .

ووصلنا القرية يوم خميس بعد الظهر ، وكنا نعرف أنه يقضى الخميس والجمعة فى بلدته قرب بنها ، لبسنا ملابس تجار فلاحين ، وحملنـا أقفـاص البضـاعة على رؤوسنـا وفيهـا خبأنـا السـلاح ، ووصلنا إلى مكان غاص بالشجر قرب القرية فدخلنا بين الأشجار ، وهناك ألقيت تعليماتى لرجالى ، وكان يعقـوب الزنط يومها كالأسد شجاعة وفـراسة ، وبعد أن فهم الرجـال تعليماتى وعرف كل منهم دوره ، وماذا سيعمله أكلنا دجاجاً كنا أحضرناه معنا ، ثم نمنا نحو ساعتين ، وأفقنا فى منتصف الليل ، وفى الساعة الواحدة صباحاً كنا قد أكملنـا استعدادنا ، قـررنا أن يقـوم بالحملة خمسـة منا ويظل

اثنان بين الأشجار يحرسان الأسلحة والأطعمة وبقية الأشياء .

وفى الساعة الثانية كنا أمام البيت . هجمنا على الحرس والبوابين وضربناهم وكتفناهم ، وتأكدنا أن رجائى بك هنا ، فدخلنا فى نظام وشجاعة ، وصعدنا السلم ، لم نصادف أحداً . كان الجميع نياماً ، وفجأة هجمنا على غرفة نوم رجائى بك ، كان فى عز النوم فصحا مرتعباً ، وأراد أن يظهر بأشجع ما يستطيع ، ولكنى هجمت عليه وأخرجته من السرير ، وأمرت رجالى بأن يقفلوا عيونهم حتى تلبس امرأته ملابسها .

ولبست وقلت لها : لا تفتحى فمك أرجوك . نحن لا نريد العدوان عليك لأننا لانعتدى على النساء . سترين أن كل ما سنطلبه من زوجك معقول وهو فى صالحك أنت قبل كل شىء ، والمرأة فهمت فجلست بعد أن لبست ثياباً ثقيلة على طرف السرير ولم تفتح فمها إلى النهاية .

وقلت لرجائى بك : بقى حضرتك فى حزب الشعب ، يعنى من حزب الحرامية ...

فقال الرجل : ماذا تريدون منى ؟ .

ـ نريد أن تترك هذا الحزب الزفت وتنضم إلى حزب الوفد .

ـ أنا لا أحب الوفد أو الوفديين ...

ـ لابد أن تحب الوفد والوفديين .

- كلهم مستبدون والنحاس باشا ومكرم باشا جبابرة .

- سترى أنهم ليسوا كذلك ، وأنهم يريدونك أنت بالذات لأنك رجل معروف وغنى .

- سيرفضوننى ..

- يعنى أنت مستعد لأن تترك حزب الزفت ..

- تقصد حزب الشعب ؟ إنه يرشحنى لمجلس النواب عن بنها .

- والوفد أيضاً مستعد لترشيحك فى أى مكان تريد ..

- ومن يضمن لى ذلك ؟.

- أنا . سأرتب لك موعداً مع النحاس ، وسترى أنه رجل طيب جدًا . ولكنك ينبغى أن تعلن الآن أنك تنفصل عن حزب الشعب وتنضم إلى الوفد وتعلن تأييدك للنحاس ومكرم .

- أنا مستعد ، ولكنى لا أضمن ..

وقالت السيدة حرمه : هؤلاء رجال عقلاء يارجائى ، وهم فى الحقيقة يمكن أن يؤدوا لك خدمة كبيرة . إن انضمامك للوفد خير ألف مرة من هذا الحزب الذى أنت فيه الآن ، وكل رجاله لصوص .

فقال رجائى بك : يعنى الوفد مستعد لقبولى عضواً فيه ؟.

- طبعاً ولكن لابد أن تكتب الآن إعلاناً رسمياً تقرر فيه أنك تترك حزب الشعب لأنك تبينت أنه غير وطنى ، وأنه لا يخدم البلد ،

ولكنه يخدم الإنجليز والملك ، وأنت تنضم إلى الوفد حزب مصر الأصيل وتصبح من رجاله .

ـ ربما وافق النحاس باشا على قبولى ، ولكنى أخاف من مكرم عبيد .

ـ لا تخف من مكرم عبيد ، إنه لا يستطيع مقاومة النحاس ، مادام النحاس قد قبلك فثق أنك أصبحت عضواً فى الوفد ، ومكرم عبيد سيرحب بك .

ـ أنا موافق وأعلن خروجى من حزب الشعب وانضمامى إلى الوفد .

ـ كتابة أرجوك ، لابد أن تكتب ذلك .

وقالت امرأته : أنا أحضر إليك الورق والقلم .

وقامت لتخرج من الغرفة فقلت لها : لا تحاولى استعمال التليفون من فضلك . لقد قطعنا كل سلوك التليفون . أحضرى الورقة والقلم ، وتأكدى أنك إن فعلت شيئاً ضدنا قتلنا زوجك .

وقال لها رجائى بك : هؤلاء عفاريت يانعمات . هاتى الورق والقلم ، وأتت بالورق والقلم ، وكتب الرجل إعلانه والسلاح على رأسه ووقعه وقال : هل هذا يكفيكم ؟ ، وقرأ النص فقلت : نعم يكفينا .

وقلت له : الآن لابد أن تعطينا ألف جنيه .

ـ ليه بقى ؟ .

ـ لأننا جيش ولنا مصاريف .

وقالت امرأته : أنا أعطيكم الألف جنيه على شرط أن تخرجوا من هنا بعد ذلك .

ـ نحن سنفعل ذلك ، وتأكدى ياست هانم أننا أدينا لزوجك خدمة لم يكن ليحلم بها ، سيصبح من زعماء مصر .

وقالت : نادولى ناشد أفندى .

ونادى يعقوب : ياناشد أفندى ..

ودخل ناشد أفندى ، كان رئيس حسابات رجائى بك ، كان رجلاً محترماً وإن كان فى ملابس غير مناسبة .

وقالت له الست : هات ألف جنيه من الخزنة .

وقال يعقوب : خليهم ألفين .

وقال رجائى بك : ليه بقى ؟.

ـ ألف للمعلم الجوهرى رئيسنا وألف لنا .

وقال رجائى بك : أعطهم ألفين . خلينا نخلص .

وأتى ناشد أفندى بالفلوس . وأخذها يعقوب الزنط ، وقلت لرجائى بك قبل أن نخرج : شوف يارجائى بك ، أقسم بالله أنك لوغيرت رأيك أو كنت تلعب بنا فإننا سنقتلك . المسألة مشيت كويس إلى الآن ونريد أن تظل كذلك .

ـ مادمتم قد وعدتم بتسهيل المسألة من ناحية مكرم فأنا لن أتغير ، سأكون وفدياً مخلصاً تأكدوا من ذلك .

ـ والآن أنت تظل مكانك حتى نخرج .. وسنأخذ سيارة من سياراتك لنعود بها ولكن تأكد أننا سنعيدها إليك .. نحن ناس أفاضل . وبعد غد إن شاء الله تكون على باب النحاس باشا فى جاردن سيتى وستجدنى هناك . وأنا أتولى تقديمك إلى النقراشى ، والنقراشى سيقدمك إلى النحاس وإعلانك هذا سينشر فى الصحف غداً .

ـ موافق .

ونظرت إلى امرأته وقلت : اسمحى لى ياست هانم أن أبدى إعجابى بك . كتر خيرك ألف مرة . لقد أديت لزوجك خدمة لا تصدق ولن ننسى فضلك أبداً : كونى أنت رقيبة على زوجك لأننا نخاف أن يزقزق عقله ويرتد .

ـ لا تخافوا ، لن يرتد ، مافعلناه الليلة لن يتغير .

ـ شكراً ، سلام عليكم .

وخرجنا ، وأخذنا سيارة من سيارات رجائى بك ، كان معنا إعلان رجائى بك الذى أقر فيه بأنه يترك حزب الشعب وينضم إلى الوفد ، وذهبنا إلى المكان الذى تركنا فيه رجالنا فأخذناهم وعدنا إلى القاهرة .

وفى الصباح ذهبت إلى النقراشى بك وحكيت له الحكاية وناولته الإعلان فقرأه وقال : هل أنت واثق من أن هذا الرجل مخلص .

ـ لو لم يخلص لقتلناه .

قال : نحن لا نقتل .

ـ ولكننا نحن نقتل الخونة .

ـ أنت المسئول .

ـ نعم أنا المسئول .

وفى مساء ذلك اليوم نشر إعلان رجائى بك فى جريدة البلاغ وصباح اليوم التالى فى جريدة الجهاد ، وفى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، كنت مع النقراشى بك على باب النحاس ، ووصل رجائى بك لطفى وسلم ، وكان فرحاً مبسوطاً جدًّا ، والنقراشى أدخله على مكرم ، ومكرم رحب به ، ودخلنا كلنا على النحاس باشا وتمت العملية على أحسن صورة كنا نتمناها .

ووزعت الألف جنيه على الرجال الخمسة الذين كانوا معنا ، وقسمت الألف الثانية بينى وبين يعقوب الزنط ، والنحاس باشا انبسط منى جدًّا وقال : أنت دخلت الوفد أم لم تدخل ؟.

ـ أنا وفدى بطبعى ياباشا ، ولكنى أتمنى أن تعلن دولتك أننى عضو فى الوفد .

وقال النحاس : يامكرم ، المعلم الجوهرى من الآن عضو فى

الوفـد ، قومـوا بإعلان ذلك فى الجهاد والبـلاغ ، وإذا كان يـريد أن نرشحه للبرلمان فى أى دائرة فأرجو أن تـوافقوا . هذا رجل شجاع . إنه رجل نادر !.

ثم قال لرجائى بك : أنت مبسوط الآن ؟ .

ـ جدًّا يادولة الباشا ..

ـ أنت الآن تضمن أنك ستكـون عضـواً فى البرلمان عن بنهـا ، سنعلن ذلك اليوم .. تتغدى معايا النهاردة ، أتمنى ذلك .

وقال لمكرم : رجائى بك يتغدى معنا اليوم . هذا مكسب عظيم ، الآن سيرى الناس كيف أن حزب الشعب حـزب هلس وأن الوفد هو الهيئة الوطنية الوحيدة فى مصر .

ولم أكن أعلم أن قضيتنا التالية ستكـون يعقوب الزنط نفسه ، وهذا الـرجل كان عزيزاً علىَّ جـدًّا ، ولهذا فعندما بلغنـا أن نفراً من أهل قريته فى الصعيد يريدون قتله انزعجنا جدا وقررت الدفاع عنه بكل ماأستطيع .

ذلك أن والـد يعقـوب واسمه سليمان الـزنط كـان متهما بقتل رجل من قرية بنى رافع فى مديرية أسيوط ، وأهل القرية قرروا قتل يعقوب انتقـاماً لرجلهم ، وأرسلوا رجلين مسلحين إلى القـاهرة لكى يتبعـاه ويقتلاه ، وعـرفت خبرهما عن طـريق جواسيسى فنـاديت يعقوب وقلت له : ماذا نعمل ؟.

ـ نقتل هذين الرجلين ، ونحن نعرف أين هما ونحن نتتبعهما .

قلت : لا ، نحن لا نقتلهما ، نحن نقبض عليهما ، ونجردهما من السلاح ونأخذهما ونرتب غزوة للقرية ، حيث سيرى أهل القرية كلهم أننا ناس لا يستهان بنا ، أريد قوة من عشرة رجال . عليك ترتيب ذلك لأننا سنذهب إلى هناك ونقوم بالغزوة بعد أسبوع أى يوم الثلاثاء القادم ، لابد أن يظل الأمر سرًّا فلايعلم بالتفاصيل إلا أنا وأنت . ينبغى أن يكون تسليحنا من أقوى مايمكن لأن الصعايدة ناس أقوياء جدا وأسلحتهم متوفرة .

ـ حاضر ، تأكد من أن كل شىء سيتم كما تريد .

ورسمت خطتى بغاية الإتقان ، كان غرضى أن أضع حدًّا لهذا التهديد لحياة يعقوب ، ووضعت خطة حاسمة لغزو القرية وتأديب العائلة التى تريد أن تعتدى على يعقوب . فذهبنا فى سيارتين ، وكان معنا سلاح يكفى لغزو مصر كلها . وكنا اثنى عشر رجلاً ، وبعد الظهر اجتمعنا فى مكان قريب من القرية وأعددنا عدتنا لكى يكون الهجوم فى الصباح الباكر ، فى الفجر لأنه لم يكن من الممكن الهجوم بالليل ، لأن البلد لا كهرباء فيها .

بعد الفجر أكملنا عدتنا ، وكانت وجهتنا منازل عائلة الشوَّافين التى تريد أن تقتل يعقوب . كان رئيس الأسرة رجلاً فى نحو الستين من عمره ولكنه كما قالوا لنا رجلاً من حديد وانتظرنا حتى عاد مع جماعته من صلاة الفجر وجلسوا يشربون الشاى .

وفاجأناهم مع طلوع الشمس ، كان الهجوم مرعباً فعلاً ، فقد كان رئيس عائلة الشوافين ـ واسمه عبد الله شعبان الشواف ـ يشرب الشاى ويضحك مع رجاله عندما فوجىء بنا ندخل عليه والسلاح فى أيدينا ، وقلت : كل واحد يفضل مكانه ، لا نريد أن نقتل أحداً ، نحن رجال يعقوب الزنط ، فين الشيخ عبد الله شعبان الشواف ؟!! .

وقال الرجل : هاأنا أمامكم من أنتم وماذا تريدون ؟.

ـ نحن رجال يعقوب الزنط ، وهذا هو أمامكم . لماذا تريدون أن تقتلوه ؟.

ـ ومن قال إننا نريد قتله ؟.

ـ لماذا تكذب ياشيخ عبد الله ، أنت الذى أرسلت هذين الرجلين لقتله ، لقد قبضنا عليهما واعترفا بالحقيقة ..

ـ نحن نريد قتله لأن أباه قتل رجلاً من أسرتنا .

ـ ولنفرض أن أباه قتل رجلاً منكم فلماذا لا تقتلون أباه ؟.

ـ لأنه مات ..

ـ والرجل مات فتقتلون ابنه ؟.

ـ هذه عادتنا هنا .

ـ وهل هذا عدل ؟.

ـــ نعم ، إنه العدل عندنا .

ـ هذا ليس عدلاً ياشيخ عبد الله .

ـ وماذا نعمل ، نترك رجالنا يقتلون ونحن سكوت ؟.

ـ لم يقل أحد أن تظلوا سكوتاً ، ولكن اقتلوا القاتل ، أما أن تسلطوا رجالاً على رجل برىء ليقتلوه لأن لكم ثاراً عند أبيه ..

ـ وماذا نفعل ؟.

ـ أنتم لن تفعلوا شيئاً ـ نحن الذين سنفعل .

ـ وماذا تقصدون ؟.

قلت : سترى .

وهجم رجالنا عليهم ، كان هجوماً عنيفاً مفاجئاً ، وقبضنا على الشيخ عبد الله وأخيه واثنين آخرين من رؤساء الأسرة . وحاصرنا الأبواب ، وأمسك رجالنا بالأربعة وعبطناهم وهات ياجلد . كانت الجلدات مصفحة بقطع الحديد ، وكان الضرب يقع على أظهر الرجال ، وكل ضربة تهدم جبلاً ، وأغمى على الشيخ عبد الله ، وفجأة فتح الباب ودخلت امرأة طويلة عريضة وقالت : أنا بنت الشيخ عبد الله . ماذا تريدون ؟ هل تريدون أن تقتلوه ؟.

ـ نعم ، لأنه كان يريد أن يقتل رجلاً منا .

ـ تقصد يعقوب الزنط ؟ .

ـ نعم ..

ـ لقد قتل أبوه رجلاً من رجالنا .

ـ أبوه قتل فما ذنبه هو ، أبـوه مات رحمة الله عليـــه ، فما ذنبه هـو ؟.

ـ وماذنب هؤلاء الرجال حتى تضربوهم هذا الضرب الشنيع ؟.

ـ لأنهم يريدون أن يقتلوا يعقوب الزنط وهو من رجالنا .

ـ اتركوا الرجال وأنا أقول لكم أننا لن نقتل يعقوب .

ـ ومن حضرتك ؟.

ـ أنا بنت الشيخ عبد الله وأخت القتيل .

ـ نـريد أن نسمع من الشيخ عبـد الله ورجال عـائلتكم أنكم لن تعتدوا على يعقوب الزنط .

ـ أنا أعدكم بذلك ، اتركوا الرجال .

وتـركنـا الرجـال ، والمرأة قـامت هى ونسـاء البيت بتضميـد الجروح . وأفاق الشيخ عبد الله وعرضت ماتفقنا عليه ووافق عليه ، وقلت : لابد أن تحلفوا كلكم على المصحف بألا يعتدى أحد منكم على يعقوب الزنط أو أى رجل من رجالنا ، وبعد تردد قال الشيخ عبد الله يعنى نترك رجالنا يقتلون ونحن جالسون سكوتا ؟ .

ـ وماذنب يعقوب الزنط ؟.

ـ إنه دم بدم .

ـ يعقوب لا ذنب له وحرام أن تقتلوا رجلاً بريئاً .

ـ لقد أقسمنا على المصحف بأننا لن نعتدى عليه .

ـ أريد أن أطمئن ..

ـ وماذا نفعل لكى تطمئن .

ـ هذه السيدة ابنتك

ـ نعم إنها ابنتى .. لقد مات عنها زوجها .

ـ أريد أن أتزوجها لكى أضمن أننى أصبحت عضوا من عائلتكم .

ـ مش ممكن أن نزوج ابنتنا لرجل مجرم مثلك .

ـ أنا لست مجرماً ، أنا رجل مخلص لصديقى وأدافع عنه .

ـ وقال أخو الشيخ عبد الله وهو يشير إلى :

ـ لا يبدو أن هذا الرجل مجرم .

ـ قلت : أنا من أسرة كبيرة . أنا رجل محترم ويشرفنى أن أتزوج منكم . وهاهى البنت أمامكم فأسألوها .

ـ نحن لا نسأل البنات .

ـ وقال أخوه :

ـ هذا ابن حلال . نزوجه ابنتنا ، وليه لأ ؟.

ـ وتنتهى التارات بيننا .

ـ وقلت للبنت : تتزوجينى ياست هانم .

ـ مايأمر به أبى .

ـ وأبـوها وافق وعقدنـا الزواج فى اليـوم التالى وبعد أن عقـدنا الزواج تقدم رجل منى وهو يقول :

ـ الحقيقة أننى لا أريد حرباً معك .

ـ ولا أنا أريد أى حرب مع أى إنسان .

ـ إذن فنحن نستطيع أن نتفق .

ـ طبـعاً نستطيع ، كل ماأريـده هو أن تبـتعدوا عـن يعقوب الزنط .

ـ وكيف ولنا عنده ثأر ؟.

ـ ياأخى لقد انتهينا من ذلك الموضوع ، فماذا تريد يارجل ؟.

ـ أنا أخو القتيل .

ـ وماذا نعمل لك ؟.

قال الحاج عبد الله : إنه أخو القتيل يامعلم جوهرى .

ـ أنتم ناس عقولكم كالحجـر ، وكنا نعرف ذلك قبل أن نراكم ، ولهذا قلنا إنه لا ينفع فيكم إلا التأديب .

ـ ومن الذى سيؤدبنا ؟.

ـ نحن .. أنت لا تعرفنا ، اسأل شيخ الشوافين ، ويعقوب الزنط هذا الذى تريد أن تقضى عليه بطل ، وسترون الآن كيف أنه بطل .

ـ وماذا تعنى ؟.

ـ أعنى أنه سيقود حملة لضربك وضرب كل إخوتك .

ـ لا هو ولا أبوه ..

ـ إذن فسنهجم عليكم بعد دقائق ، دبروا أمركم ، لقد علمتنا التجارب أننا لانفلح إلا إذا أدبنا عدونا ، ثم تركتهم ، وعدت إلى رجالى وقلت :

ـ اسمعوا ، هؤلاء الشوافون لا يستطيعون الثبات لنا . اسمع يايعقوب ، لابد من ضربهم ، وأضفت : أنتم تعرفون قواعدنا ، السرعة فى الحركة والضرب العنيف الحاسم ، نحن اثنا عشر وهم خمسون ، فليكن هجومنا شاملاً وسريعاً ، أما الضرب فكلما كانت الضربات عنيفة كلما كان ذلك أعون على النصر .

وقال يعقوب : أو لابد من ذلك ؟.

ـ لابد من ذلك لكى تنجو أنت بالذات .

وكان شيخ الشوافين قد ذهب ودعا الشباب من أهل قريته لخوض المعركة معنا ، واستطاع أن يجمع فوق الخمسين رجلاً وأتوا فى أيديهم هراوات ومسدسات ونحن هجمنا عليهم كالبرق ، وهم لم يتعودوا على هذه السرعة فى الضرب . كان الرجل منهم لا يكاد

يتحرك حتى نكون نحن قد ضربناه وأخذنا مسدسه ، وأنا شخصياً لم أدر ماذا حدث : هجمت عليهم دون تفكير ، وكانت الضربة منى بعشرة بدلاً من أضرب الواحد منهم فى وجهه كنت آخذ رأسه وأضربها فى الحائط فيخر إلى الأرض ، لم نطفىء نوراً ولا استعملنا كرسياً . والمعركة أخذت عشر دقائق فروا بعدها بعد أن أخذنا منهم اثنى عشر مسدساً وعصياناً وهراوات وذخيرة للمسدسات وعندما انتهت المعركة وفروا ناديت : ياعم الشواف : ولم يردوا إلا بعد دقائق .

جاء هذا الشيخ وإذا هو قد جرح جرحاً كبيراً فى رأسه وقال بصوت ثابت : قيل لنا إنكم قتالون قتلا .

ـ نحن أم أنتم ؟ أتدرى من الذى أدار المعركة معكم ؟ إنه يعقوب الزنط ، قلت لك إنه بطل ، وهو نفسه لم يكن يريد قتالكم لأنه رجل عنده ضمير ، والآن هو يريد الصلح معكم .

ـ أما نحن فنريد مسدساتنا .

ـ سيكلمكم هو لتروا بطولة هذا الرجل الذى كنتم تريدون قتله غدراً .

وتقدم يعقوب وقد لبس طاقية تحمى رأسه ، وأمسك فى يده مسدسين وقال : لماذا كنتم تدبرون قتلى وأنا قريبكم وابن بلدياتكم .

قال الشيخ أخو القتيل : ألا تعرف ماذا فعل عمك عمار الزنط ؟.

ـ لا ، لا أعـرف ، وأنا مالى ومـال عمى ، أنا أريـد أن أصالحكم لكى تروا أننى أحبكم ، ودليلى على حسن نيتى هو أننى سأرد إليكم الآن أسلحتكم على أن تقرروا أنه لاشىء لكم عندى وأننى أعود الآن إلى عائلتنا .

ـ وماذا نعمل فى الثأر بيننا ؟.

ـ انتهى كل شىء الآن ، ولا ثأر بيننـا فتعال يـاعم وصافحنى وخذوا أسلحتكم .

ومـد يعقوب الـزنط يده ، وأقبل عم عمار الشـواف فصافحـه وتعانقا ثم أخذ السلاح وقال : تتغدون معنا اليوم .

فالتفت يعقوب نحوى وقال : ماذا نعمل ؟.

ـ موافقون لكى يرى أهل القـرية أن مسألة الثأر هذه انتهت . ولن نرد لكم السلاح إلا أمام الناس.

فقال عمار الشواف : أرجوك يامعلم جوهرى ، بلاش حكاية رد السلاح دى أمـام الناس ، لأننـا لا نريـد أن يظن الناس أننـا دخلنا معكم فى معـركـة وانهزمنـا ، نـريـد أن نقـول للنـاس إنكم أتيتم وتـراضيتم معنا وصـافحتمـونا ، ونحن سـامحنـا يعقوب الـزنط ووافقنا بهذه المناسبة على زواجك أنت من ابنتى .

ثم اقترب الرجل منى وقال : نتكلم فى هذا الموضوع فيما بعد .

وبعد قليل قال : يامعلم جوهرى أنت فتوة ، وكما رأيت الآن أنت تعرف كيف تكسب المعارك وقد تصالحنا الآن وأصبحنا نسايب .

قلت : موافق ، المهم أن نخلص من مسائل الثأر هذه .

وجلس الرجل وطلب قهوة ثم قال : يامعلم جوهرى أنت فتوة ، وكما رأيت الآن أنتم ماهرون جدًا فى المعارك .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ .

ـ أريد أن أقول إن لنا ثأراً مع قرية مجاورة هى قرية أبو حميدة ، والحميديون يعتدون دائما على أرضنا ونحن نريد أن نكسر أرجلهم .

ـ ولماذا لا تكسرون أنتم أرجلهم ؟.

ـ هذا يثير مشاكل وثارات لا تنتهى ، ولكن إذا قمتم أنتم بهذا العمل انتهى كل شىء ، ولم يعد الحميديون إلى مهاجمتنا .

ـ مع الأسف نحن لا نستطيع أن نفعل ذلك .

ـ لماذا ، ألستم فتوات ؟ أو لست أنت نسيبنا .

ـ بالذات لأننا فتوات فنحن لا نستطيع أن نفعل ذلك ، الفتوة ياحاج شواف رجل أمن .. رجل نظام ، والذى تطالب به أنت الآن هو أن نعتدى على ناس لم يعتدوا علينا ، اصرفوا النظر عن ذلك إذا كنتم تريدون أن تصالحونا وتستعيدوا سلاحكم .

وقال الرجل : يبدو أننا لم نكن نفهمكم .

ـ أفهمتمونا الآن ؟.

قال : نعم .. فهمناكم .

وقال يعقوب : ياحاج شواف ، أنا أريد أن أناسبكم لكى أؤكد الصلح معكم ، وقد سمعت أن لك فتاة جميلة . مارأيك فى أن تزوجنى إياها ؟..

ـ ابنتى أنا .. تتزوج رجلاً قتل منا أبوه رجلاً ؟

ـ ولم لا ..

قال : صحيح ، ولم لا ، انتظرنى حتى أعود إلى بيتى وأتحدث مع امرأتى فى ذلك الأمر ، أنت تعرف أننا لا نزوج بناتنا إلا بعد بحث وتفكير .

قال يعقوب : أنا واثق من أن السيدة حرمك ستوافق على أن أتزوج إحدى بناتك ، وأنا أعرف أن عندك بنات كتير .

قلت لهم : أراكم قد دخلتم فى مسائل عائلية ، ويمكننى الآن أن أنصرف .

قال يعقوب : غير ممكن يامعلم أن تدعنى هنا وحدى وتمضى .

ـ أتخاف ؟..

ـ ليست مسألة خوف ، أنت تعرف أننى لا أخشى من مخلوق ..

ـ إذن أنا أمضى .

وقلت للحاج الشواف :

ـ أنا ماضى الآن وسآخذ معى زوجتى .

والتفت الرجل إلى زوجتى وقال : مع السلامه يامعلم .

وقبل أن أمضى قلت ولكنى أريد منك ألفى جنيه .

قال الرجل : ألفى جنيه ؟ لماذا ؟.

ـــ أنت ترى أننا دخلنا المعركة معكم ، وكنا نستطيع أن نمضى بالسلاح ، ولكننا رددنا إليكم الأسلحة ، هذه النقود ليست لى . إنها لرجالى وعددهم عشرة ، وأنا من قواعدى أن أعطى رجالى أكثر ماأستطيع . أنت تعرف أنهم أبطال ، وقد رأيت كيف يقاتلون . هذه النقود لهم .

ـ آسف ، لا أستطيع أن أدفع .

ـــ بل لابد أن تدفع وإلا هجم الرجال على قريتكم ونهبوا كل ماأستطاعوا نهبه .

وقال يعقوب للحاج الشواف : اعطه ياحاج ، هؤلاء جبابرة إذا هجموا ، اشتر قريتك .

ـ طبعاً أنت مع رئيسك .

ـ هذا طبيعى ، ولكن هذه النقود ليست لرئيسى ، إنها ستكون ثمناً لقريتك .

ـ هل هم حقاً يستطيعون الهجوم علينا ؟..

ـ طبعاً ،، إنهم يستطيعون غزو الصعيد كله .

ـ أمرى لله .. سأعطيك هذه النقود على ألا يعلم بأمرها أحد .. ياولد ياحسن .. هات لى ألفى جنيه من رفاعى أفندى ، وأنت خذ النقود والزم الصمت ! وأخذتها ومضيت تاركاً يعقوب الزنط ليرى ماسيتم فى أمر زواجه .

ووزعت النقود على الرجال ، وأحسست وأنا عائد إلى القاهرة أن رجلى تؤلمنى ، بل أحسست أن المرض دخل فى مرحلة خطيرة .كانت رجلى كلها خدرة أو « منملة » .. كما نقول ولكن الألم كان شديدا جدًّا فى سمانة الرجل ، فقلت لبكرى ، وكان ثانى رجالى بعد يعقوب الزنط : بكرى .. خذنى إلى المستشفى .

ـ أى مستشفى ؟.

ـ القصر العينى ، رجلى عادت إلى المرض ، وهى الآن أسوأ .

قال ـ ولكنهم لن يدخلوا المستشفى رجلاً غريباً ، أنت تعرف القصر العينى .

أنت ستأخذنى هناك إلى الدكتور القلى ، فهو الذى يعالجنى ، وأنا أنام فى جناحه فى المستشفى .

وأخذونى إلى المستشفى وكان الألم قد بلغ الغيبوبة ، وقبل أن أدخل فى الغيبوبة سمعت صوت الدكتور قلى يقول : لا تخف يامعلم جوهرى ، خير ..! كله خير !.

تحسنت حالى بعد أيام ، وفجأة دخـل يعقوب الزنط ، فدهشت وقلت : إيه يايعقوب ؟ نقول مبروك ؟.

ـــ لا مبروك ولا حاجة ..

ـ ليه لا سمح الله ؟.

ـ امـــرأة الحـاج الشواف رفضت زواج ابنتهـا منى ، وقالت : يستحيل أن أزوج ابنتى رجل « قتال قتلا » .. وعواطلى كمان .

وأصابنى ذلك بألم شديد ، فقلت بعد تفكير قصير .. مين يعرف يمكن عندها حق ، أصل شغلاتنـا دى حاجة كبيرة ولكنها وحشة ، صحيح أننا أقوياء وأغنياء ، ولكننا فى الحقيقة عواطلية ..

ثم عـدت أفكر طـويلاً وأخيراً قلت فى نفسى : ولـو ! عواطليـة عواطلية ، لن أترك شغلاتنا هذه مع أنها شغلانة خطر .

وقـال بعد لحظـات صـــمت : معلم جـوهـرى ، ابحث لى عن عروسه .

ـ من عينى دى وعينى دى .

ـ وتكون قمر .

ـــ أجمل بنت فى مصر ، وسأقيم لها أعظم فرح رأيناه .

ثم قلت : توكل على الله سأكلم لك بنت باشا .

ـ لا أريد باشوات . سأتـزوج بنت ممثلة ، أنت تعرف أن نجمة

السينما جمالات الشريف لها بنت كالقمر .

ـ أتريد أن تتزوجها ؟.

ـــ نعم ، فنحن الذين نعمل فى الفتونة لايمكن أن نتزوج بنت ناس.

ـ بنات الممثلات مش بنات ناس ؟.

ـ ليس قصدى ، ولكن قصدى أنهن مثلنا يعشن دائما خارج المجتمع ، يقولون إن جمالات الشريف نجمة السينما كانت فى أول أمرها بائعة بانصيب .

ـ صحيح ، وكان اسمها خضرة السيد حسنين .

ـ يعنى أنها ليست من عائلة ؟.

ـــ مفيش فى الدنيا إنسان من غير عائلة .

ـ المهم أنك تفهمنى ..

ـــ نعم أفهمك . اذهب أنت الآن ودع لى مسألة زواجك من بنت جمالات الشريف .

وخرج يعقوب ، وجعلت أفكر وحدى وأنا فى السرير : صحيح أن الفتونة لا شىء ، فهى ليست شغلانة ثابتة مثل الوظائف المعروفة ، إنها عمل بلطجية وأنا كنت ابن ناس محترمين ، كنت ابن أسرة من كبار أسر الجواهرجية وكنت مفلساً ولكنى كنت محترماً ، والآن أنا

صايع ، غنى وقـوى ولكنى صايع ومريض ، أنـا لا شىء ، لابد أن أترك الفتونـة وأعود إلى التجارة ، وتذكـرتُ منسى العطار ؟ ألست صاحب محل من أكبر محلات العطارة فى البلد ؟ حقا إننى غبى ! لقد جاءنى منسى مراراً وحذرنى من أن المحل سيفلس إذا لم ألتفت إليه لابـد أن أرسل إليـه ليأتينى ، سأعطيـه ألف جنيـه ليجـدد المحل . سأترك الفتونة وأعود إلى العطارة .

***

وخـرجت من المستشفى بعـد أسبـوعين ، لقـد تحسنت رجلى ولكنها لم تشف . إن مرض الفيل لا يشفى ، إنه يهدأ فقط ثم يتجدد معلهش ، ربنا كريم وقادر على شفائى .

وبعد أسبـوع فى بيتى قلت لأم عبد الحميـد : اذهبى إلى منسى العطار .

فنظرت إلى طويلاً ثم قـالت : منسى العطار ؟ الآن فقط تذكره ؟ البقية فى حياتك .. قلت : مات ؟.

ـ نعم ، مات من سنة .

ـ ولم لَمْ تقولى لى ؟.

ـ قلت لـــك بـدل المرة مرات ، ولكنـك مشغول دائما بالفتـونة وبالسياسة!.

قلت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. والمحل ؟.

ـ المحل موجود ، لقد أفلس ولكن مفتاحه عندى .

قلت : إن شاء الله نذهب إليه معاً .. دعى المفتاح عندك ، واسألى لى عن صنايعى عطار محترم يعمل عندى .

ـ حاضر ..

ـ ربنا يحضر لك الخير .. صدقينى ياأم عبد الحميد ، أنت وش الخير فى كل شىء فى حياتى ..

ـ ولكنك تنسانى ..

ـ لا يمكن أن أنساك ياست الكل ..

ـ ياما قلت لك .. تتركك الهباب ده الذى تسميه الفتونة وتفتح محل العطارة ! خسارة .

قلت : هانحن قد ضيعنا عم منسى أرجو أن يعوضنى الله فيه ، وربنا يفتح علينا وإن شاء الله تصبح عطارتنا أكبر عطارة فى مصر .

ـ ربنا يسمع من بقك .

وخطبت نيفين بنت جمالات الشريف ليعقوب الزنط ، ودفعت مهراً ألف جنيه ، وأجرت ليعقوب شقة فى جاردن سيتى وفرشتها له وعملت له أعظم فرح ، ورقصت فى الفرح نجمات الرقص فى مصر وغنت فيه أكابر المغنيات .

وليلـة الفـرح قلت ليعقـــــوب : عسى أن يشغلك الـزواج عن الفتونة .

ـ فشر ! هذه أعظم شغلة فى مصر ..

ـ وامرأتك موافقة ؟.

ـ طبعـاً .. اسمع يامعلم .. لابد أن نقوم بـالعملية الكبيرة التى حدثتك عنها بعد أسبوع هل تذكرها ؟.

ـــ نعم أذكرهـا ، ولا أدرى لماذا لا تميل إليها نفسى ، أنظـرنى أسبوعاً أفكر وأدرس ، ولا أدرى لماذا لا تميل إليها نفسى .

قال : خذ أسبوعين ..

وبعد أسبوعين قلت له : نتحدث الآن فى فكرتك .

فابتسم واعتـدل فى مجلـــسه وقال : أتعرف محل تـــوماس ووكر ؟.

ـ تاجـــر الأدوات الرياضـية الإنجليـزى : نعم أعرفـه ، وفيم تفكر ؟.

ـ أفكر فى مهاجمته ونهبه .

قلت : لابد أنك مجنون ، هذا محل لـو هاجمناه لكان معنى ذلك إعلان الحرب على بريطانيا .

ـ ولكن فيه ملايين ..

ـ وهل تستطيع الهجوم عليه ؟.

- وعلى أبيه .. سأرتب العملية وأقوم بها مع الرجال .

- ولابد أن أكون معكم .

- لا .. أنت تستريح هذه المرة .

- لا يمكـــن .. أنت تعـــرف أن هذا المحل محروس ومسلح .. وبدونى لن تخرجوا من معركة الهجوم على هذا المحل سالمين .

- أنـا أعـرف أنها عمليـة خطيرة جدا ، ولكنى سأقـوم بها مع الرجال وحدى ..

- لايمكن .. لابد أن أكون معك .

قال : كما تشاء .

- إننـــى أنا الـــذى سأدرس لك الخطـة وأشرف على الهجوم ، لاتنسى أن هـذا المحل محروس بنحـو عشرين جنـدياً وضـابطـاً بـريطانيـاً يلبسون مـلابس مـدنية ، وكلهم مسلحـون بالبنـادق الأتوماتيكية .. لابد من خطة محكمة ..

- اعمل لنا الخطة ، ونحن تحت أمرك فى كل شىء .

ودرست المحل على مهل ، ذهبت إليه واشتريت أدوات ريـاضية مرة ومرات . درست رسم المحل وعـرفت أين يقف الجنود الحرس . كان لابـد من الهجوم على المحل بالنهـار لأنهم يقفلونـه بأبواب من حديد بالليل .

وبعد أن درست الخطـة قلت ليعقوب : لن نستأجـر أى إنسان من خارج جماعتنا .

ـ أتظن أننا كفاية ؟.

ـ كفـاية بشرط أن نتقن تنفيذ الخطـة ، وكل واحد منـا لابد أن يكـون قد تـدرب على إطلاق النـار ، والعمليـة كلها لابـد أن تتم فى نصف ساعة ، وقد أصر يعقوب على أن يكون هو قائد العملية ، وأن يدخل بنفسـه مع اختصاصى الخزائن ويفتح الخزائن ويـأخذ كل مايجد من المال والمجوهرات .

واخترنا أن يكون الهجـوم يوم أربعاء لئلا يكـون هناك زبائن مصريون كثيرون .. ويكون الهجوم بعد الظهر .

ويوم الهجوم أجـرنا سيارتين : واحدة تـاكسى وواحدة نقل ، واحدة تقف على أول الشارع ـ شارع المناخ ـ من هنا والثانية تقف فى ميدان الأوبرا . وتسلحنا جيداً ، وكانت الخطة أن أقود أنا الهجوم حتى نضرب الحرس ونفتح الطريق ـــ وبعد ذلك يـدخل يعقوب مع ستة رجال ويضرب ويقتل كل من يعترض ثـم يفتح الخزنة ويأخذ كل مافيها ويخرج بما معه إلى سيارة النقل وأنا آخذ بقية الرجال إلى التاكسى .

وكان الهجوم عنيفاً ، أطلقنا الرصاص على مدخل المحل ، وهرب الزبائن ، ثم بدأنا الدخول ووجدنا أنفسنا أمام خمسة من الإنجليز المسلحين بالبنادق الآلية ، وبدأت المعـركة قتلنا اثنين من الإنجليز ، وهم قتلوا منـا اثنين ، وأنا كنت ضمن المهاجمين ، وملكنـا نواصى المحل من الداخل ، ودخـل يعقوب واتجه إلى الخزينة وفتحهـا وأخذ

كل مافيهـا وملأ حقيبتين كبيرتين . ورجالنا نهبـوا أدوات رياضية من كل صنف واتجه ثلاثة من رجالنـا إلى سيارة النقل بالمنهوبات ، وأنـا انتظـرت حتى نهايـة النهب ثم أمـرت الـرجـال بـالإسراع إلى التـاكسى ، ويعقـوب وضـع الحقيبتين فى سيـارة النقل ثم عـاد إلى المحل ، ويـاليته مـاعاد ! فقـد أصابـوه فى مقتل ووقع على الأرض ، أسرعت إليه ، والرجال حملوه إلى التاكسى ، واتجهنا بكل ما معنا إلى مقابر الإمام حيث كنا أعددنا المخابىء .

كانت الساعة الثامنة مساء ، وكان كل شىء قد انتهى ـ ضربنا الإنجليز ضربة رهيبة ، ولكن ياخسارة يعقوب مات .

ليلتها صلينـا عليه ودفنـاه وأخذنا المنهـوبات ، وكـانت شيئاً عظيماً جـدا ، وأنا انتقلت فى سيـارة النقل إلى المقـابر ، وقلبى كـان يبكى على يعقـوب على الـرغم من أننـا نهبنا بمـلايين ، وكـان أملى عظيماً فى أن يفيق ، ولكن يعقوب مات ، وهـو عندى يساوى ملايين وملايين ، وانكسر قلبـى عليه ، لم يكن قد مضـى على زواجه عشرة أيام ، وقـد انتصر فى تلك المعركة ، ولكنه مـات ، عليه ألف رحمة من الله .

زرت امرأته فى البـيت ، وكانت معنا حـلوة أى خيرة ، ولكنـك لا تتصور حزن امرأة على زوجها الـذى يعجبها بعد عشرة أيام من الزواج، يومهـا لم يكن معى إلا مائتان وخمسـون جنيهاً ، أعطيتها لها، قلت لها : إن هذا شىء مؤقت وأننى مستعد لكل ماتطلب .

مسكينة كانت حزينة جدا ، وقالت وهى تبكى : مات .

ـ نعم مـــات عليه ألف رحمة من الله ، ولكن مثله لا يموت ، لقد مات فى معركة مع الإنجليز أعداء مصر ، إنه شهيد .

ـ وماذا أعمل أنا الآن ؟.

ـ تعتمدين على الله ، وأنا عندى مال ، لك كل ماتطلبين .

قالت : لست فى حـاجة إلى مال ، إن أمى بخير والحمـد لله ، وأنا وحيدتها ومالنا كثير ، ولكن المشكلة أننى ربما كنت حبلى .

ـ هذه بشرة خير ، أنا ولى أمر الطفل أو الطفلة .

ـ حسناً ، سأعتمد على الله ثم عليك .

قلت لك : توكلى على الله ، ثم على ، وسكتت وخرجت .

لا يعلم بألمى لموت يعقوب إلا الله سبحانـه وتعالى ، كان ذراعى اليمنى ، ثم إنه كـان إنساناً حقا ، ومكثت أسابيـع لم أعرف أين أنا ولا مـا أنـــا فـاعل ولا مـــاذا أصنع ، وآلام رجلى زادت وذهبت إلى المستشفى حيث أعطونى حقنا ثم عدت إلى البيت .

وكنت أتوقع أن القيامة ستقوم فى البلد بسبب ضربتنا للإنجليز وبالفعل قامت يومـاً واحداً ، الصحف كلها نشرت الخبر ، ووصفت ماحدث على قدر مااستطاعت ، طلبة الجامعة تظاهروا يوماً ، اتضح لى أننا قتلنـا ثلاثـة بريطـانيين لا اثنين فقط ، ولكن الجرائد سكتت بعد ذلـك ، ولم يعد أحد يتكلـم عن هذه الضربـة الفريـدة فى بابها ،

وفهمت أنا مـا الذى حدث ، وقلت فى نفسى : إذا كنا قـد نهبنا أغنى محل إنجليـزى وقتلنا ثـلاثة من الإنجليـز فإن المسألة بيننـا وبين الإنجليـز أصبحت حربـاً ، والإنجليز خسروا المعـركة معنـا ونحن أعـداؤهم ، وسمعنـا أنهم غير متأكـدين من شخصيـة المعتـدين ، فصمتوا ومضـوا يبحثون حتـى إذا وضعوا أيـديهم على المسئولين ضربوا ضربتهم القاتلة .

وقالت أم عبـد الحمـيد : اسمع يـامعلم : إنك لا ينبغى أن تقيم هنا .

ـ تريدين أن أذهب إلى القرافة .

ـ نعم ، أنت هناك آمن ، اذهب إلى هناك مع جمعة وأنا أظل هنا .

ـ ماذا ستعملين ؟.

ـ سأتصرف .

وكنت أعرف أنها دائماً تتصرف على أحسن مـا يكون ، فذهبت إلى القرافـة ، كنا نقيم هنـاك فى قبر لا بأس بـه ، كان فيما مضي قبراً لإحدى الأميرات ، كان غـرفة واسعة مبطنة بـالرخام تحت الأرض ، كان القبر فى وسطهـا ، وكنا نستطيع أن نعيش على راحتنـا ، حفرت حفرة كبيرة ووضعت الأمـوال والجواهر فيها ثم سويتهـا بالأرض وعشنا فى المقابر أياماً .

وكانت أم عبـد الحميد ترسل لنا الطعـام بعد منتصف ليل كل

يوم ، بـل إنها أرسلت إلينا مراتـب وبطاطين لننام ، ومضـى نحو أسبوع ، وفى ذات ليلة أتت هى بنفسهـا وقالت لى : يبدو أن أحزاب السراى تـريد أن تتكلم معك ــ أرسلوا إلىَّ وطلبـوا أن تحـــدد لهم موعداً .

ـ لن أراهم ..

ـ بل ستراهم .

ـ ياأم عبد الحميد ، هذه مكيدة .

ـ نعم هى مكيدة ، ولكنهـا لصالحنا ، سيأتون بعد ثـلاثة أيام فتعال لتقابلهم ، سنحرس البيت بـالرجال والسلاح ، حتى إذا رأينا منهم شرًّا قاتلناهم ! وفكرت طويلاً ثم قلت : حاضر ياأم عبد الحميد اليوم الخميس ، سأراهم يوم الأحد فاستعدى ، من فجر الأحد أريد أن أستحم وأحلق ذقنى ، وألبس قفطانى الأسود وعمامتى البيضاء وأقابلهم فى أحسن هيئة .

ـ ليبارك الله فيك .

وبالفعل كنت فى صباح الأحد على أتم الاستعـداد لرؤية هؤلاء الناس ، وأرسلـوا بالفعل مندوبين من ناحيتهم ، وكـان واحد منهم من البـاشوات ومعه بعـض الرجال ، وقـابلتهم فى صالـون البيت ، وكنت قـد أعددت رجـالى وأوصيتهم بأن يقومـوا واقفين لى ساعـة أدخل ليعرف رجـال الإنجليز والسراى مكـانتى واحترام رجالى لى ،

ودخلت ، وأتت القهوة ، وقامـوا وسلموا علىَّ بكل احترام وجلست ، وقلت أهلاً وسـهلاً !.

ـ أهلاً بك ياسيد الفتوات .

ـ ماذا تريدون .

ـ نحـن لا نريد شيئـاً ، ولكن جلالـة الملك يريـد أن تنضم إلى رجاله .

ـ لماذا ؟ أنا لست برجل سياسة .

ـ لقد سمعت بما حدث ؟.

ـ وما الذى حدث ؟.

ـ نهبوا محلات توماس ووكر أكبر محل إنجليزى فى مصر .

ـ سمعت بذلك ، ولكن مادخلى أنا بذلك ؟.

ـ أنت لا دخل لك ، هـذا عمـل جماعـة مصر الفتـاة .. والملك خائف .

ـ مم ؟.

ـ من هـؤلاء الشبـان .. شبـاب مصـر الفتـاة نقصـد أنهم متهورون .

ـ متهورين أو ليسـوا متهـورين ، دعهم يورونـا شغلهم مع السراى .

- يامعلم جوهرى قلنا لك : إن الملك هو الخائف .

- وأين الإنجليز ؟.

- الإنجليز بعثـــوا يســـتقدمون قوات جديدة من بريطانيا .

- ليحاربوا مصر الفتاة ؟.

- أجل وليحاربوك أنت ..

- وأنا مادخلى ؟.

- يقولون : إنك نصير الوفد .

- ربما ، ولكنى رجل واحد .

- ومعك جيش .

- أتسمون عشرة رجال جيشاً ؟.

- يقولون إن جيشك عشرة آلاف رجل .

فضحكت وقلت : عشرة آلاف رجل ؟ لو كـان عندى هذا الجيش لدخلت فى حرب مع الإنجليز.

- ثم إنك أنت وحدك تساوى جيشاً .

- وماذا تريدون منى ؟.

- نريد منك أن تنضم إلى الملك .

- أنضم إلى الملك ؟ لماذا ؟.

ـ لتـزيد من قـوته ، لأننـا سمعنا أن الإنجليز يـريدون عـزله ومبايعة ابنه .

ـ فليفعلوا ذلك ، ومـاذا يهمنا ؟ والـولـد سيكون مثل أبيـه ، والسراى هى السراى .

ـ جلالة الملك سيعطيك الباشوية .

ـ وماذا سأعمل بالباشوية ؟.

وبعد لحظة صمت قلت : اسمعوا أيها الرجال ، أنتم تضحكون على رجل مثلى ، ماهى حكاية الجيش الذى عدده عشرة آلاف ؟ وماذا تقصدون بقولكم : إن الملك خائف وأنا الذى سأحميه ؟ هذا كـلام لا يصدقه إلا رجل عبيط .

قال رئيسهم : لا يامعلم ، نحن لا نضحك معك ، نحن جادون ، ولماذا لا تجربنا ؟ .

قل : إنك مستعد للانضمام للملك ونحن نأتيك بالباشوية .

ـ وماذا سأعمل بالباشوية .

ـ غيرك يشتريها بعشرة آلاف جنيه .

ـ غيرى ! ولكنها لا تساوى عندى ثـلاثة تعريفة ، سألتكم بالله إلا تـركتمونـا ، نحن ناس طيبـون وفى حـالنا ، ونحن لا شأن لنـا بالسياسة فابعدوا عنا .

ـ على أى حال عندنا أمل فيك ، إن جلالة الملك ينتظر منك الكثير وسواء قبلت أم لم تقبل فسينعم عليك بالباشوية .

فانفجرت ضاحكاً وقلت : ياسبحان الله ! أنا باشا ؟ المعلم الجوهرى يصبح حضرة صاحب السعادة الجوهرى باشا ؟ وأغرقت فى الضحك .

وقالت أم عبد الحميد من الداخل : خد الباشوية يامعلم ! .

قلت لا ياأم عبد الحميد ! هذه نكبة ولعنة ، لنظل كما نحن (ناس طيبين بسطاء). ثم قلت للرجال : مع السلامة بقى ياإخوان .

وقال أحدهم : سنمضى ، ولكننا نحذرك من الإنجليز ، بيننا وبينك أنهم يشكون فى أنك الذى قمت بعملية الهجوم على محلات توماس ووكر .

ـ لا أظن ، إنهم يعرفون أننى رجل طيب ولا أغامر بمثل هذا العمل.

ـ سترى .. سلام عليكم !.

ومضوا ،وأتت أم عبد الحميد وقالت: مش خسارة يامعلم ؟ .

ـ أية خسارة ؟.

ـ مش خسارة الباشوية ؟.

ـ لا مش خسارة ، هذه الباشوية نكبة ، إنها لا تنفعنا فى شىء ، ثم إن أنصارنا سينصرفون عنا إذا أنا أخذتها .

ـ والإنجليز ؟.

ـ سنرى ، ربنا يستر ! الآن أعود إلى مدافن الإمام .

ـ نم هنا الليلة . أريد أن أطهو لك الطاجن الذى تحبه .

ـ لا يـاأم عبد الحميـد لا أدرى لماذا لم أعد أحب هـذا الطعام ، هـؤلاء الرجـال لم يأتـوا من السراى فقط ، بل من الإنجليز أيضـاً ، هـــؤلاء هم خـدم السراى والاستعمار ، وهم الآن ذاهبـــون إلى دار المندوب السامى ، ومن يدرى فـربما هاجمنا الإنجليز الليلة ، ولكن يبدو لى من الرجال الذين كانوا هنا أننى أصبحت شخصية محترمة فى البلد .

قالت : وأنت فعلاً شخصية محترمة فى البلد ، محترمة جدًا .

ثم قالت وهى تبتسم : الآن قم واستحم واسترح ودعك من كل شىء آخر ، وأكلت أكلاً خفيفاً ، ثم مضيت إلى الفراش .

وبـالفعل أتى من دار المنـدوب السامى منـدوب إلى بيتى بعـد انصرافى إلى القـرافة ، وقـال لأم عبد الحميـد : دار المندوب الســامى تريد أن تكلم المعلم .

ـ المعلم مريض ، ماذا تريدون منه ؟ .

ـ خيراً ..

ـ قولوا ، وأنا أقول له .

ـ لابد أن نراه .

ـ اسمع ياسيدى لا أعرف كيف أتصل به ؟.

ـ اسمعى ياستى ، نحن نريد منه خدمة وسيكون له خير كثير من ذلك .

ـ أنتم لايجىء منكم خير .

ـ صدقينا ، سيكون لكم خير منا ، سألناك بالله إلا يسرت لنا رؤية المعلم .

ـ بعد يومين ترسلون إلى مندوباً وأرجو أن أبلغكم رأيه ، وعندى أمل فى أن أتصل به ولكنى أرجوكم ، لا تتجسسوا على .

ـ إذا كنت صادقة معنا ، فنحن صادقون معك .

ـ إذن إلى مابعد الغد ، فى مثل هذا الوقت .

وخرجوا ، وأبلغت أم عبد الحميد المعلم فأرسل يقول : قولى لهم إننى سأكون فى البيت بعد غد فى الساعة العاشرة صباحاً وأتوا ، وتقابلنا .

ـ يامعلم ، أنت تخاف منا ؟.

ـ لا أخافكم ، ولكنى لا أثق فيكم .

ـ هذه المرة ستعرف أنك تخطىء وأننا جديرون بثقتك .

ـ وماذا تريدون ؟.

ـ اسمع ياسيدى ، لعلك سمعت بالهجوم على محلات توماس ووكر ونهبها .

ـ نعم سمعت .

ـ لقد عرفنا من الذى فعل ذلك .

ـ أما أنا فلا أريد أن أعرف .

ـ كما تشاء ، ولكننا الآن نخاف على ثانى المحلات الإنجليزية فى مصر ، ونحن نريد معاونتك وأرجوك أن تعرف أن مساعدتك لنا ستزيد مركزك فى البلد قوة .

فنظرت إلى الرجل الذى قال ذلك وقلت فى دهشة : أنا ؟ أنا الرجل البسيط الذى أعيش فى حالى تفكر فى أننى أستطيع معاونة الجبابرة ؟.

ـ إنها مساعدة بسيطة ؟.

ـ وماهى ؟.

ـ هناك جماعة من اللصوص ينسبون أنفسهم إلى الفتونة يفكرون فى العدوان على محلات مورامز .

ـ هذه المحلات الضخمة عند الخازندار ؟.

ـ نعم ، هى .

ـ إذن لماذا لا يلجأ أصحابها إلى البوليس ؟.

ـ لاندرى ، ولكننا سمعنا أن البوليس يخاف على سمعته .

ـ إذن فليساعدهم الجيش الإنجليزى .

ـ هذا لا يجوز .

ـ على أى حال ، هذه محلات لا تضر المصريين ، إنها تبيعهم كل شىء بأسعار أقل بكثير من غيرهم ، ومساعدتهم فى هذه الحالة مساعدة للمصريين .

ـ إذن فأنت مستعد لمساعدة الإنجليز .

ـ الإنجليز لا ، ولكن لا مانع عندى من حماية المصريين .

ـ ولكن هل هذه هى كل المعلومات التى لديكم ؟ .

فقال الرجل : نستطيع أن نأتيك بمعلومات أخرى .

ـ أحب أن تعرفوا أننا حتى لو اتفقت فأنا لن أعمل معكم ، إننى أعمل دائماً مع رجالى ، وأعرض عليهم كل شىء ، فإن وافقوا قمنا بالعمل أو لا يوافقون وهنا لا أقوم ثم إننى أساساً لا أدخل فى صراع مع الإنجليز .

قال أحدهم : أتخاف من الإنجليز يامعلم ؟.

فنظرت إليه طويلاً ثم قلت : ومن فى مصر لا يخاف من الإنجليز ثم إننى لست رجل سياسة ، إننى رجل فى حالى .

فقال لى رئيسهم : صدقنى يامعلم ، إننا صادقون فى كلامنا معك .

ـ ممكن جدًا ، ولكن هل سمعتم فى حياتكم أننى دخلت ذات مرة فى صراع مع الإنجليز ؟.

- لا لـــم نسمـــــع ، ونحن أيضاً لن نسألك الـدخول فى صراع معهم.

- إذن ماذا تريدون ؟.

- التعاون معهم .

- مع من ؟.

- مـع الذيـن سيعتـدون على المحلات الإنجليـزية ونـرجو أن توافق .

- إذن فاذهبوا إليهم .

قـال رئيسـهم : قلت لك إن أولئك الـرجـال يريـدون مهـاجمة محلات مورامز على أن تحول بينهم وبين ذلك .

ودون تفكير طـويل أقـول : إننى لا أريد أن يهاجم أحـد هـذه المحلات ، إنها إنجليزيـة بالفعل ، ولكنها تسـاعد المصريين بصورة أحسن بكثير من المحـلات الإيطـالية مثـلاً ، ولكن لابـد أن أستشير رجالى قبل الموافقة .

- نحن نقـول لك هذه مجموعـة من اللصوص الـذين يسمون أنفسـهم فتوات ، يـرسمون خطة لمهاجمة محلات مـورامز ونهبها . ولدينا معلومات أخرى ، ولكننـا رأينا أن نعرض الأمر عليك فلا أحد فى مصر يستطيع الوقـوف فى وجه أولئك النـاس إلا البوليس وأنت ، فأما البوليس فقـد أخبرناه بما لدينا ، ورجالـه يبحثون ، وبعضنا

فكـر فى أن يعرض الأمـر عليك فأنت رجل شهـم ، وتعرف أن هـذه المحلات تعامل المصريين بأمانة ، وبعضنا يظن أن أولئك اللصوص إذا عرفوا أنك ستشترك فى الموضوع خافوا وتوقفوا .

قلت : ابحثوا وهـاتوا لى معلـومات أكثـر ، لأن العملية خطيرة ، ولا أستطيع الدخول فيها إلا إذا كانت لدى معلوماتٌ أكثر وأدق من هذه ، ثم لابـد أن يوافق رجالى وأعتقد أن الحكـومة إذا وقفت معى ، ووافق رجالى فإننى سأكون مستعدًّا للعمل .

قـال رئيسهم : هل تستطيع حمايـة هـذه المحـلات من أولئك اللصوص؟.

قلت : حماية المحلات لا ، ولكن حماية المصريين الذين يشترون من هناك .

ـ هـذا يكفينا ، سنوافيك بمعلومـات أدق إذا وافقت على القيام بهذه العملية .

قلت : سأحتاج إلى سلاح ، أنا فى حاجة إلى سلاح .

ـ سنعطيك ماتحتاج إليه من سلاح .

ـ حسناً ، إذن فأنتم تتفضلون الآن لكى تعودوا إلى بالمعلومات والأسلحة ، ونحن لدينا تدبير وتفكير .

ـ اتفقنا ..

ومضوا ، وجعلت أفكـر فى الموضوع ، فوجدت موافقـــة من أم

عبد الحميد ، وقال بكرى الذى أفكر فى أن أجعله كبير رجالى بعد يعقوب والذى استمع إلى الكلام : يبدو لى أن هذه جماعة من اللصوص يامعلم .

ـــ ربما ، ولكن هل هذا يمنعنا من حماية المصريين منهم .

ـ بالطبع لا يمنعنا ، إذا كنت أنت موافق فنحن مستعدون أن نزيل هؤلاء اللصوص من الوجود .

وانصرف الرجال وخلوت إلى أم عبد الحميد فقالت : لا أدرى إن كنت أستطيع أن أقول لك شيئاً ؟.

ـ ماذا تريدين أن تقولى ؟.

ـــ أريد أن أقول : إنك لين هذه المرة . أراك وافقت بسرعة على مثل هذا العرض .

ففكرت لحظات ثم قلت : الحق ـــ وهذا كلام بينى وبينك فحسب ، إننى أخاف من الإنجليز .

ـ لماذا ؟ هل وقع بينك وبينهم شر ؟.

ـ أنت تعرفين حكاية توماس ووكر ، وهؤلاء الإنجليز فيهم خبث وطول بال ، وأنا أريد أن أبعدهم عنى .

ـ وهل تظن أن أولئك الرجال الذين كانوا هنا أتوا من ناحية الإنجليز ؟.

ـ أحسّ بذلك ، ثم إننا سنستشير رجالنا ونبحث ونفكر .

قالت : على أى حال ، المسألة تحتاج إلى حذر .

وانقضى نحو أسبوع ورجالى يبحثون فى كل مكان ، والرجال أتونا بالسلاح والأموال فناديت بكرى الذى كنت أنوى أن أتخذه مساعداً لى بعد يعقوب ، وقلت له : ماذا تعرف عن محلات موارمز؟.

ـ هذه نستطيع العمل على حمايتها إذا أردت ، لأن هذه المحلات مكونة من خمسة أدوار ، وهى تقدم للمصريين خدمات كثيرة : ملابس وأقمشة وموبيليا وكل شىء .

ـ إذن فأنتم مستعدون للقيام بهذه العملية ؟.

ـ إذا كنت أنت مستعداً فنحن مستعدون ، والذى نراه من الآن أننا لا يمكن أن ندع اللصوص ينهبون هذه المحلات .

قلت للذين أتوا بالسلاح والأموال ؟ ولكنى لا أستطيع التدخل لحماية هذه المحلات إلا بعد تفكير طويل ودراسة شاملة . وهذه مسائل أدرسها أنا مع رجالى ، وقد أقوم بها أو لا أقوم ، ثم إننى لا أريد مهاجمة الإنجليز .

قال رئيسهم : أتخاف من الإنجليز ؟.

قلت : نعم أخاف من الإنجليز .

ونحن أيضاً نخاف من الإنجليز ، فهل نفهم من ذلك أنه يمكن أن تقوم بالعملية ؟.

ـ أدرســكم أولاً ثم أقرر ، وكما قلـت لكم أنا لا أريـد مهاجمة الإنجليز .

سترى أن هذه العملية ناجحة ، ثم إنك تظن أننا رجال الحكومة نحن لسنا رجال الحكومة ، نحن مـن رجال البوليس وقد سمعنا أن بعض الفتوات يريدون نهب محلات مورامـز فقلنا إننا لن نجد من يساعدنا على الوقوف فى وجه أولئك الرجال إلا أنت ..

ـ إذن دعونى أفكر ، ثم أقول لكم مايستقر عليه رأيى .

وبـالفعل درسـت الموضـوع ، واتصلت بصـديقـى المأمـور ، فاستفهم هو من رؤسائه وقال لى :

يبدو يـامعلم أن هذا صحيح ، هنـاك فتوات لصوص يـريدون الهجوم على محلات مورامز .

ـ وما رأى الحكومة ؟.

ـ الحكومة مستعدة لمسـاعدتك إذا وافقت على الوقوف فى وجه هؤلاء اللصوص هذه عملية سرقة كبيرة ، ونحن لا نريدها .

ـ إذا كانت الحكومة مستعدة للـوقوف معى فأنا مستعد ، لقد عـرفت من الذى يـريـد مهاجمة محلات مـورامـز ، إنهم « شويـة حرامية » وليسوا فتوات .

ـ هل تستطيع حماية المحلات منهم ؟.

ـ حماية المحلات لا ، ولكن حماية المصريين الذين يشترون من هناك .

ـ إذن فنحـــن سنعطيك تاريخ الهجوم ووقتـه ، وأنت تستعد وتواجه أولئك اللصوص .

ـ لا مانع عندى ، ولكنى فى حاجة إلى سلاح .

ـ كل ماتريد .

ـ عشرون مسدساً وذخيرة وبندقية أتوماتيكية .

ـ سيكون ذلك لك .

ـ وخمسة آلاف جنيه .

ـ بل عشرة ..

ـ ومتى ترسلون ذلك ؟.

ـ غداً إن شاء الله !.

ـ وغداً بعد الظهر أبدأ الاستعداد .

ـ وناديت بكرى كبير رجالى بعد يعقوب وقلت له :

أريد أن أعتمد عليك فى عملية صغيرة .

ـ وأنا فى الخدمة .

ـ المسألة تحتاج إلى شجاعة .

ـ لك على عهد الله أن أبيع نفسى .

قلت : حسناً ، إن عمليتنـا الآن هى حماية محلات مـورامز من جماعة من اللصوص التى تتستر وراء الفتونة .

ـ ولكن هذه المحلات إنجليزية ؟.

ـ طبعـاً ، ولكنهـا تخـــدم المصريين ، ولهذا وافقـت على القيام بحمايتها ، وأنت ستتولى ذلك وسأقدم لك عشرة مسدسات وبندقية مترااليوز وألف جنيه لك ، ومائة جنيه يـوميًا لكل واحد من زملائك ، كويس ؟.

ـ كل ما يأتى منك كويس .

ـ أريـد أن تمـرن رجـالك على استعمال السـلاح ، وتنشئون لأنفسكم مركز حراسة فى الدور الأول من المحل .

ـ أوامرك .

ـ ولكـــنى أريـد أن أطمئن على أنكم متمـرنون على استعمال السلاح .

ـ أصدر إلينا تعليماتك .

ـ تأتـون كلكم إلى البيت غداً ، سيكون عنـدى ضابط ليعلمكم كيف تستعملون السلاح ، كم أنتم ؟.

ـ تسعة .

ـ أريـد أن تكونـوا خمسة عشر ، لابـد أن يكون واحـد منكم بالسلاح فى كل دور ، وسننشىء لكم اتصالاً تليفونيًا داخليًا .

ـ أوامرك .

قلت : اذهب الآن وتأتينى غداً ، وهذه ثلاثة آلاف جنيه : ألف لك وألفان للرجال .. والمهم ألا تقول كلمة لأحد ، حتى رجالنا لا ينبغى أن يعلموا حقيقة ماسنعمل .

وبالفعل قمنا بتدريب الرجال ، وذهبت بنفسى ، ورأيت كيف نقوم بحراسة المحل ، وأطمأننت . لم يعجبنى معظم رجالى ، ولم يكونوا من النوع الذى أستطيع الاعتماد عليه ، ولكن لم يكن عندى أحسن منهم ، وعدت إلى بيتى ، وتركت القرافة .

ثم فوجئت أن أربعة من الفتوات يزورونى فى البيت ويقولون مش عيب يامعلم ؟.

ـ ماهو هذا العيب ؟.

ـ تحرس محل إنجليزى .

ـ لا مش عيب ، هذا المحل إنجليزى صحيح ، ولكنه يخدم المصريين ، أنتم تعرفون أنه غاص بالمصريين من الصباح إلى المساء وأسعاره ممتازة جدًا .

ـ على أى الأحوال نحن غير راضين عما تعمل .

ـ لايهمنى ، سأستمر .

ـ هذا بدلاً من أن تقول : إنك مستعد للتعاون معنا على نهب المحل ؟.

ـ ولماذا ننهب هذا المحل أو غيره ؟ هل نحن لصوص ؟ .

ـ لسنا لصوصاً ، ولكن هذه شغلتنا .

- وماهى شغلتنا ؟.

- مثل هذه .. الهجوم على المحلات الكبيرة .

- ونهبها ، أليس كذلك ؟.

- نعم ، وماذا فى ذلك ؟.

- فيه كل شىء ، فيه أن الفتوات يصبحون لصوصاً .

- دعنا من ذلك الكلام الفارغ .

- لا ، أنا لا أدع هذا الكلام لأنه ليس فارغاً .

- شوف يامعلم جوهرى ، لعلك لا تعلم أننا نخاطبك باسم خمسة فتوات .

- ولو كانوا خمسين .

- يعنى أنك تتحدى فتوات مصر .

- لا ، أنا لا أتحدى الفتوات ، أنا أتحدى اللصوص ، اسمع ياأخينا ، أنا أعرف أنكم لا تفرقون بين الفتونة واللصوصية ، أما أنا فأفرق ، الفتوة رجل أمن وقانون ، إنه رجل يعمل مع البوليس ، ولا يقوم بعملياته إلا ضد اللصوص .

- هل تظن أننا أتينا اليوم لكى نعرف منك ماهى الفتونة ؟.

- يبدو ذلك .

- اسمع يامعلم ، لقد اتفقنا نحن الفتوات الخمسة على أن نهاجم محلات مورامز ونهبها .

ـ لن تفعلوا !.

ـ بل سنفعل ، لدينا سبعون رجلاً .

ـ جربوا ! فى أى يوم ستذهبـون لهذه العملية ستجدوننا هناك فى انتظاركم !.

***

انصرف الرجـال ، وذهبت إلى المحلات ورتبت مركـز الحراسة عند الباب ، وجعلت عليه بكـرى ونبهته ، وصعدت إلى الأدوار كلها ، وفى كل دور كنت أرى منـدوبنا مسلحـاً فى مركـز فى أحد الأركـان ، واطمأننت على أن أسلحتهم معـدة تمامـاً ، ثم قابلـت المدير ، كـان رجلاً إنجليزيا طويلاً ، ولكنه رفـيع كالفتلة ، قال لى : إن أصله لواء فى الجيش الإنجليـزى ، وقد أعجبنى أنـه كان لـديه مدفـع رشاش رهيب ، قلت له : عن طـريق مترجم : إذا بدأ أولئك الـرجال عمليتهم فأرجو أن تفتح الأبواب الخلفية وتخرج الناس بهدوء .

أما مقابلة اللصوص والمعركة معهم فهذا عملى وعمل رجالى .

وبعد خمسة أيام أتوا ، كنت هناك ، كانوا بالفعل حوالى سبعين رجلاً وعلى رأسهم ذلك الفتوة الذى تحدث معى ، قلت له وأنا أمسك بالمدفع الرشاش : انتظر حتى يخرج الناس .

ـ ولماذا يخرج النـاس ، إننا نـريدهم هنـا لكى تضطـرب أمور الحرس .

- بل ستنتظرون حتى يخرج الناس ، لا تنسى أن هؤلاء الناس مصريون .

- مصريون أو عفاريت ، لن يخرج أحد . دعنا ندخل وإلا فإنك ستكون أول القتلى .

- بل أنت أول القتلى !.

وأفرغت رصاص بندقيتى فى جسده ، ووقع إلى الأرض وصحت فليقف كل رجل مكانه ، لننتظر حتى يخرج الناس . يابكرى ابعث من يتأكد من ذلك ، ثم أغلقوا الأبواب الخلفية ، حتى لا يهرب من هؤلاء اللصوص أحد .

وبعد دقيقتين جاء بكرى وقال لى : خرج كل الزبائن وأغلقنا الأبواب الخلفية .

- الآن تفضلوا أيها اللصوص !.

ودارت المعركة . لا أصف لك ماحدث ، أنت تعرفنى إذا دخلت معركة فإننى أنسى نفسى وأهجم وأى رجل يعترضنى كنت أضرب به الأرض ، وبكرى لم يعجبنى فى ذلك اليوم ، الفرق بينه وبين يعقوب كان كالفرق بين السماء والأرض ، كان الخوف ظاهراً على وجهه ، وقد قتل فى المعركة لأنه كان جباناً ، كانت أضخم معركة فى حياتى ، قتلنا أربع فتوات واثنى عشر رجلاً وقبضنا على الباقى وسلمناهم للبوليس ، أصابتنى رصاصة فى ذراعى الأيسر ، لم

يهمنى ذلك ، ظللت أقـود المعركة حتى انتهت ، مـن حسن الحظ أنه ظهـر من رجـالى شـاب كأنه الأسـد ، كـان اسمـه منسى ، منسى طنطاوى ، هذا الشاب قاد المعركـة وكان إلى جانبى عندما جرحت . المعركـة استمرت ساعتين بعـدها أتى البـوليس وتسلم المجرمين ، المديـر الإنجليـزى كـان إلى جـانبى وقـال : انقلـوه إلى المستشفى الإنجليزى !.

ـ لا ، بـــل إلى القصر العينى .. اسمع ياطنطـاوى ، خذونى إلى مستشفى القصر العينى ، هنـاك ستجـــد الـدكتـور القللى ، اسمع ستجد فى جيب بكرى ألف جنيه . خـذها فهى من نصيبك ، أرجو أن تحصى رجالنا وترسل الجرحى منهم إلى مستشفى القصر العينى ، وتتولى أنت نقل الموتى إلى بيوتهم ، كم رجلاً مات من رجالنا ؟.

ـ خمسة ، منهم بكرى .

ـ حسناً هذه الألف جنيـه ستوزع على عائلات القتلى ، بعد أن تفعل ذلك كله ستـذهبون إلى بيتى وتبلغ أم عبـد الحميد أننى بخير وأننى فى مستشفى القصر العينى .

***

وذهبوا بى إلى مستشفى قصر العينى ، هناك عالجنى الدكتور القللى وإخوانه ، وكنت فى أسوأ حال عنـدما وصلت ، فقد نزف منى دم كثير فأعطونى دماً .

وفى الصباح صحوت وقد تحسن حـالى ، وجدت أم عبد الحميد إلى جـانبى ، سرنـى ذلك جـدًا ، وزارنى مـديـر المحل الإنجليـزى وأعطانى خمسة آلاف جنيه ، أخذتها لكى أوزعها على عائلات القتلى وأدفع تعويضاً للجرحى ، كنت سعيداً جدًا بهذه العملية .

كان لهذه المعركـة أثر بعيد جدًا فى حيـاتى ، لقد قتل فيها أربع فتوات واثنا عشر من الأعداء ، وفقدنا نحن خمسة رجال ، وإذن فقد كانت هذه معـركة عسكرية أو مذبحة لا مجرد معـركة فتوات ، لقد مات فيهـا واحد وعشرون رجـلاً ، أما الجرحـى فقد بلغـوا ثلاثين ، أحسست وأنا راقد فى سريـرى فى المستشفى أننى قد تخطيت حدود الفتونة ودخلت فى دور جـديد من القتال وأنا لم أكن مستعـدًا لذلك كان لابد أن أضع حـدًا لذلك ولكنى كنت متعباً جـدًا ، فقد عادت إلىَّ آلام مـرض الـرِّجل اليسرى ، أحسست أنها الآن تتمـدد وتتـورم ويحمر لونها ، خفت على نفسى ، وأتى الطبيب وكشف ، لم يعجبنى شكل وجهـه بعـد الكشف ، لم يقل لى حقيقة حـالى ، كما هى عـادة الأطباء ، ولكنى فهمت أن حـالى سَيِىءٌ ، وكان العلاج الـذى أعطانى إياه كثيراً ومعقداً .

بعد شـىء كثير من التفكير انتهيت إلى أن حكايـة الفتونـة هذه لابد أن تنتهى ، فأنا لا حمل لى على هذه المعـارك الدموية الضخمة ، وها أنا اليـوم مريض بمرض عسير فكيف أستمر ؟ تسـاءلت : ماذا أعمل ؟ إذا أنا تركت الفتـونة فماذا أعمل ؟ ومع الأسف أننى فقير ،

لم أكن قد ادخرت مـالاً أعتمد عليه ، وجاءتنى أم عبـد الحميد مرة ، فقلت لها : ماذا أعمل ياأم عبد الحميد ؟.

ـ تستمـر فى الفتونـة ، لقد أصبحت الآن من عظماء مصر ، كل الناس يتحدثون عنك وعن شجاعتك .

ـ ولكنى مريض يارقية .. رجلى هذه ليست على مايرام .

ـ أرنى إياها ..

وكشفت عن رجلى ونظرت لاحظت على وجههـا الخوف الشديد وقالت : ومنذ متى وهى على هذا الحال ؟.

ـ من أيام ، وهى تؤلمنى جدًا .

ـ ماذا قال الطبيب ؟.

ـ لم يقل شيئاً ، ولكنى رأيت على وجهه أنه غير سعيد ، يبدو أن حـالة رجلى سيئـة فعلاً ، أظن أن هـذا هو المرض الـذى يسمى داء الفيل على أى حال لا تخافى ، نحن نتوكل على الله دائماً ، ولكنى أقول لك : إننى لا أستطيع الاستمرار فى الفتونة بعد أن صارت حرباً ، لقد مات فى المعركة الأخيرة واحد وعشرون رجلاً ، وهذه المعركة لم تنته بعد ، فإن الفتـوات لن يسكتوا ، إنهم أشرار وأقوياء كـما تعرفين ، ولا يستطيع الثبات لهم إلا رجل كالحديد ، وأنا كنت أستطيع الثبات لهم ، ولكن رجلى فى حالة سيئة ولابد أن أتصرف الآن على أننى رجل مريض ، مريض بمرض عضال .

وساد الصمت بينى وبينهـا . يبدو أن الخوف مـلأ نفسها فلم تجد ماتقـوله ، اطمأننت وعرفت أن هـذه المرأة تحبنى فعلاً ، ولهذا فقد زادتها حـالة رجلى تمسكاً بى ، وقد رأيت أنها عنـدما زارتنى فى المستشفى كان من رأيها أن أستمر فى الفتونة ، ولكنها الآن وقدرأت رجلى غيرت رأيها ، أظن أنها لم تعـد تتمسك بـالفتـونـة ، ولكنهـا شعرت بمزيد من الحب لى ، ومضت تفكر كيف تساعدنى ، فنظرت إلى وقالت : على أى حال أرجو ألا تخاف ، إنك لست وحدك فأنا معك وأنا لن أتـركك وحدك أبـداً ، ودعنى الآن أفكر فيما يمكن أن تفعل . دع هـذا الأمر لى ، وركـز أنت تفكيرك فى نفسك . أريـدك أن تشفى . هذا أهم شىء الآن ، سأعود الآن إلى البيت لأرى ماعندنا وأفكر فيما يمكن أن نفعل ، كيف يمكن أن نحافظ على مـاوصلت إليه من عظمة وتنصرف فى نفس الوقت عن هذا النوع الخطر من الفتونة .

وسألتنى عما إذا كنـت بحـاجـة إلى أى شىء ، فطمـأنتهـا وابتسمت وأنا أحدثها لكى تطمئن نفسها ، وأظن أنها أطمأنت ، فقد كانت تثق فى ثقة عظيمة وقبل أن تنصرف سألتنى :

ـ تظـن أنـنا من الممكن أن تحتـاج إلى شىء من المال ؟ اطمئن لدينا مال ليس كثيراً ولكنى أعتقد أن فيه الكفاية .

ـ لاتشـغلى نفسك بذلك ، دعى هـذه الأمور لى ، واهتمى أنت بالبيت ومافيه . حاسبى على نفسك واثبتى .

ـ ثق فى وتأكد أننى بإذن الله حديد .

وحيتنى وقبلتنى وانصرفت ، وأظن أننى لمحت دموعاً فى عينيها .

كان كل ماحرصت عليه إذ ذاك هو أن تتحسن حالة رجلى ـ ولو مؤقتا حتى أخرج وأعود إلى بيتى وأنظر فى أحوالى .

وبالفعل تحسنت بعد أسبوعين واستطعت أن أقف على رجلى ، وفى نفس الوقت كان جرح يدى اليسرى قد شفى وعدت إلى بيتى ، وجدت رجالى ينتظروننى وفى مقدمتهم محمد منسى طنطاوى ، ذلك الشاب الشجاع الذى كنت قد رأيت ونحن فى معركة محل مورامز ـ أنه خير من يقود رجالى ويعوضنى عن موت يعقوب الزنط .

ولأول ماعدت إلى البيت عرفت أن دار المندوب السامى تسأل عنى وأسرعت إلى الاتصال بهم لكى أعرف رأيهم فيما انتهت إليه معركة محل مورامز ، وقد وجدت أنهم سعداء بما انتهت إليه المعركة ، فقد أنقذنا المحل وقطعنا رجل الفتوات عن هذا المحل وقال لى مندوب دار المندوب السامى : ومارأيك يامعلم جوهرى أن نعقد اتفاقاً بيننا ـــ بينى وبينك أقصد ـ على أن نتعاون دائماً على هذا النحو .

ـ ماذا تقصد ياسيدى ؟.

فقدم لى سيجارة وأشعلها ، وأنا لم أكن أشرب السجاير ، فوضعت السيجارة على المنضدة أمامى وقلت : إذا كنت تريد أن

أكون من الآن فى خدمة دار المندوب السامى ، فأرجو أن تعلم أننى لا يمكن أن أقبل شيئاً مثل ذلك ، لقد ساعدت فى عملية حماية محلات مورامز ، لأنه محل يحبه المصريون ويزدحمون فيه طوال اليوم ، ولم يكن من المعقول أن أدع أولئك المجانين يهاجمون المحل بالنهار وهو ملىء بالناس .

فابتسم وقال :اطمئن يامعلم جوهرى ، فنحن ناس نفهم ونعرف فيم وكيف نفيد من رجل مثلك ، على أى حال لن نتحدث الآن ، فأنت حديث عهد بالمستشفى والمرض . ولابد أن تستريح وعلى فكرة ، إذا كان مرض رجلك هذا يخيفك ، فنحن فى الخدمة ، ومن الممكن أن نبعث بك إلى إنجلترا للعلاج إذا تطلب الأمر ذلك .. على أى حال فكر فيما عرضته عليك وأنت حر أن تقبل أو لا تقبل ، والآن سأنصرف وسنلتقى بعد حين ، أحب أن أكرر لك شكرنا لك ، وهذه محفظة صغيرة من الجلد فيها مايمكن أن يعوض لك بعض خسائرك . وعلى فكرة ، إذا لم تكن تريد أن تأخذ هذا التعويض فأنا مستعد لاسترداده . إننا نعرف أنك رجل حساس جدًا وقلت له وهو يتجه نحو باب الخروج من غرفتى أنت تقول : نحن على استعداد لاسترداد التعويض ، فمن أنتم وباسم من أنت تتحدث إلى ؟.

فقال (وهو يخرج) : ستعرف ذلك فيما بعد ، الآن أرجو أن تهتم بصحتك ..

وخرج وأقفل الباب وأخذت المحفظة التى تركها لى ، وفتحتها

فوجدت فيها كيساً فيه ثلاثون جنيهاً ذهبياً إنجليزيا . سرنى هذا المبلغ لأول مارأيته فى يدى ، ولكنى شعرت بالخوف ، وسمعت طرقاً على الباب . فأخفيت المحفظة بما فيها ، ونظرت . كان الداخل جمعة نظر إلى بوجهه البليد وقال : أربعة معلمين ، يبدو أنهم مهمين ، يريدون مقابلتك .

ـ ألا تعرف من يكون هؤلاء ؟.

ـ لا ، ولكنى قلت لك إنه يبدو أنهم رجال مهمون ؟.

ـ انتظر دقيقتين حتى أغير ملابسى وأعد نفسى ، وسأخرج إليهم لينتظرونى فى الصالون .

وكانت أم عبد الحميد قد حولت صالون البيت إلى شىء محترم وزينته بمقاعد وكنبة كبيرة حمراء ووضعت ستائر على الشبابيك . لا أدرى أين رأت ذلك ، ولكنها على أى حال أعطت قاعة الاستقبال قيمة ومنظراً محترماً ، وغيرت ملابسى وخرجت .

قام المعلمون الأربعة وسلموا على وجلسنا ، لم أعرفهم أول الأمر ، وبدأ واحد منهم الكلام ، قال : سلامتك يامعلم .

ـ ليه . فيه حاجة ؟.

ـ رجلك . أنت تعرج بالرجل اليسرى عرجا ظاهرا ، خيراً إن شاء الله ..

ـ صحيح ، رجلى هذه مريضة ، لا أدرى ماحقيقة ذلك المرض ، ولكننى على أى حال تحت إشراف الأطباء .

ـ أى أطباء ؟ لقد سمعنا أنك كنت فى القصر العينى . لماذا تذهب إلى القصر العينى يامعلم ؟ إن الذين يتولون الأمر فيه ليسوا أطباء .

ـ من قال ذلك ؟ إنهم أطبـاء محترمون ، وهذا المستشفى أعظم مستشفى فى مصر فى رأيى .

ـ هل جربت أطباء آخرين ؟.

ـ لا ، لم أجرب .

ـ إذن دعنا ننصحك بطبيب ممتـاز سنكلمـه ونأخذ لك معـه مـوعداً . إنـه الـدكتور رؤوف عبـد السـلام أعظم أطباء الأمـراض الباطنية فى مصر .

ـ يـدى على كتفـكم . وهل هـذا فى الموضـــوع الذى أتيتم من أجله ؟.

ـ لا ، ولكننا سمعنا عن مرض رجلك قبل أن نأتى .

ـ اتفقنا على أن تحجـزوا لى موعـداً مع طبيبكم هذا ، شكـراً ! والآن أريد أن أسمع ما الذى أتى بكم اليوم .

ـ الحقيقة أننـا سمعنا عن معـركتكم فى محل مورامـز . إنها معركة خطيرة ، ونحن نشكرك على قيادتها .

ـ لا شكر على واجب . ولكن الجماعة الذين كانوا يريدون القيام بعملية نهب محلات مـورامز جبناء وخـونه ، كانـوا يحملون لقب فتوات ولكنهم كانوا لا يستحقون هذا اللقب، لقد فكروا فى الهجوم

على محل كبير عامر بالمصريين طول النهار دون أن يحرصوا على سلامة هؤلاء المواطنين ، هؤلاء لا يمكن أن يكونوا فتوات ، على أى حال نحمد الله على أنك انتصرت عليهم . لقد سمعنا أن الإنجليز كانوا معك .

ـ لم يكن معى إنجليزى واحد .

ـ فى الظاهر ، ولكن المحل كان مليئاً بالجنود الإنجليز متخفين فى ملابس مدنية ، ويقال إن هؤلاء الجنود هم الذين قتلوا الرجال الأربعة الذين زعموا أنهم فتوات . وهذا هو السبب فى أن البوليس المصرى كتم على الموضوع كله ، ولم يشأ أن يقود تحقيقاً فى الموضوع الحقيقة أن أولئك الرجال كانوا مجرمين والحكومة حمدت الله على أنهم راحوا فى داهية .

ـ الحمد لله .

ـ ولكن هذه المعركة نبهت الحكومة المصرية إلى موضوع الفتوات ، ويبدو الآن أنها تريد أن تقضى عليهم تماماً .

قلت : وأنتم مارأيكم ؟.

ـ من رأينا أننا لا يمكن أن نظل ساكتين إذا شرعت الحكومة فى القضاء على الفتونة كلها ، إننى فتوة العباسية ، أو قل إننى ابن فتوة العباسية .

وفى المستقبل سأصير فتوة العباسية واسمى شعبان . شعبان محمود صالح .

ـ أهلاً وسهلاً ، إننى أعرف أباك .

ـ طبعاً ، لابد أنك تعرفه ، إنه رجل مشهور جداً فى مصر كلها ، ولكنه الآن عجز ومرض .

ـ يشفيه الله سبحانه وتعالى.

ـ شكراً ، ووالدى هو الذى أشار على بضرورة مقابلتكم والاتفاق معك قبل الهجوم على الباطنية .

ـ الهجوم على الباطنية ؟ هذا مشروع جديد لديكم ؟.

ـ نعم ، إنه مشروع قديم جديد . الحقيقة أن الباطنية حى خطر إنه عش لكل المصائب : حشيش ، تهريب ، إخفاء مجرمين ، وعمدة الباطنية أبو الفتوح محسب الدردير رجل مجرم كبير .

ـ لقد سمعت عنه كثيرا ، وماذا تنوون أن تفعلوا معه ؟ .

ـ الفكرة هى أننا نريد أن نهاجم مركزين من أكبر مراكز الفساد فى حى الباطنية ، إنهما مركزان للتهريب ولتجارة الحشيش ، فإذا تعرض لنا أبو الفتوح لم يكن لنا مفر من خوض معركة معه .

قلت : إن فكرة مهاجمة الباطنية فكرة قديمة ، ولكن أحداً منا لم يجرؤ عليها إلى الآن ، وأريد أن أعرف مالذى جرأكم هذه المرة .

ـ بيننا وبينك الحكومة . والحكومة التى يقولون إنها تفكر فى القضاء على الفتونة لجأت إلينا للقيام بالمعركة مع أشرار الباطنية . وليست هذه أول مرة تطلب إلينا الحكومة أن نغزو الباطنية ، فإنها

كما قلت مغامـرة ، ولكن عندمـا وجدناهم يفكـرون فى القضاء على الفتونة قلنا : هذه فرصة لنريهم من نحن وماذا نستطيع ...

ـ أرى أنكم عقدتم العزم على ذلك .

ـ نعم ، نحن وزكى الرويعى فتوة السكاكينى ..

ـ سمعت أن هذا الرجل مجرم كبير .

ـ حقًا إنه مجرم ، ولكن علاقاتنا به طيبة .. وقد اتفقنا معه على الاشتراك فى مهـاجمة الباطنيـة . والآن وبعد يـوم محلات مورامـز رأينا أننا ينبغى أن نستعين بك .

ـ إذا كـان هذا هـو الذى تـريدون حقًـا فأنا مستعـد ، ولكنكم تعرفون أننى لست مثلكم فأنتم أقويـاء جدا ، وكل فتوة منكم عنده جيش قد يصل إلى مئات ، أما أنا فلدى فرقة صغيرة : يادوبك عشرة رجال ، ثم إننى فقدت يعقوب الزنط .

ـــ كان رجلاً ولا كل الرجل ، يرحمه الله ! .

ـــ ولكن قوتـــى لازالت بخير ، وعنـدى قـائد قـوة لا يقل عن يعقوب .

ـــ نعـرفه ، محمد منسى طنطاوى ، إنـه ابن منسى طنطاوى فتوة حى طولون .

ـ أرى أنكم تعرفون كل شىء .

ـ لابـد من ذلك ، أنت فتوة كبيـــر وتعـرف أننا نحتل مكـانة خطيرة .

ـ وخطرة ..

فهز رأســه وقال : فعلاً وخطرة أحيـاناً ، أحياناً لابـد أن يكون الإنسان خطراً ونحن الآن لابد أن نكون خطرين ، إذا كانت الحكومة تريد القضاء فلابد أن تعرف أننا نستطيع أن نكون خطرين جدا إذا تهددنا خطر .

ـ لا تخف على أى حال ، إنكم تعادون الحكومة دون مبرر وإذا كنتم تـريـدون مهـاجمة البـاطنيـة فما الـذى يجعلكم تظنـون أن الحكومة ضـدكم . أنا شخصيا أرى أننا لابد أن نكـون على علاقات طيبـة مع الحكومـة ، أنا شخصيـاً لم أكن على عـلاقات سيئـة مع الحكومة أبـداً . إننى أعتقد أن الفتوات يكملون عمل البـوليس ، كان هـذا أســاسيـاً فى الماضى ولابــد أن يكـون أســاسيـاً فى الحاضر والمستقبل إذا كنا نريد أن تعيش الفتونة .

ـــ لابد أن تعيش الفتـونة ، ولكى تعيش لابـد أن نقوم بعمليـة الباطنية وبعدها وكالة البلح .

ـــ إذا كان ولابـد أن تقوم بعمليـة البـاطنية فـلابد أن تنتظـر أسبوعين على الأقل ، حتى تتحسن حالة رجلى .

ـ كان تفكيرنا هو أن نقـوم بهذه العملية بعد أسبوعين على أى

حـال . ولم نفكر قبل الآن فى رجلك ، ولكـن ها نحن الآن متفقـون ، وإن شاء الله ستتحســن رجلك بعد أن يــراك الدكتـــور رؤوف عبد السلام .

ـــ نرجـو خيرا ، وأنتم تعـرفـون أننى لابد أن أقـود معـاركى بنفسى .

ـ هل هذا ضرورى ؟ .

ـ طبعاً ، لكى أحول دون تحول معـارك الفتونة إلى معارك قتل ونهب . ومن الآن لابد أن أقول لكم إننـا إذا أردنا أن نهاجم الباطنية معاً فلا يمكن أن تتحول المعـركة إلى غارة نهب وسرقة . لا تنسى أن هناك فى الباطنية ناساً طيبين . أيضاً .

ـــ اطمئن يـامعلـم ، لن ننهب أو نسرق ، نحن سنـؤدب تجار الحشيش ورجال التهريب ، ونحن نعرف الآن أين مراكزهم .

ـ وإن شاء الله سأكون أنا قائد الحملة كلها .

فصمت قليـلاً ثم قال : طبعـاً أنا لا مـانع عندى ، وإنـه لشرف عظيم لى أن أكـون الآن تحت قيـــادتك . ولكن ألا تفكـر فى أن تترك القيادة هذه المرة لواحد من أولادك ..؟ .

ـ تقصد نفسك ؟.

ـ مثلا ، والأمر لك على أى حال .

ـ على أى حال ، أرجو أن ندرس المعركة دراسة دقيقة جدًّا قبل

أن نخوضها ، وسنرى بعضنا بعضاً مرتين أو ثلاثاً قبل المعركة .

ـ طبعاً ونحن نرجو أن تكون أنت همزة الوصل بيننا وبين الحكومة .

ـ همزة وصل فقط ، أريد أن تعرفوا من الآن أننى لست تابعا للبوليس كما تظنون .. صحيح أننى لا يمكن أن أقوم بعمل ضد الحكومة ، ولكننى كذلك لست تابعاً للبوليس ، إننى رجل مستقل ، وتأكدوا أننى لن أقول كلمة واحدة عما دار بيننا اليوم .

ـ هذا أملنا ، سنمضى الآن بعد أن اطمأننا أنك معنا .

ـ فى هذه العملية فقط !.

ـ وإن شاء الله فى عمليات أخرى .. وقبل أن ننصرف .. هل أنت بحاجة إلى نقود ؟ .

ـ لا يابنى ، لست فى حاجة إلى نقود أو سلاح أو أى شىء والحمد لله .. وسلموا على وانصرفوا .

وشعرت بتعب لطول الحديث معهم ، وكان لابد أن أعود إلى الفراش ، لأننى كنت أريد أن أفكر فيما عرضوه على ، لأن الهجوم على الباطنية لم يكن بالأمر السهل . لقد فكر فيه الكثيرون من قبل ، ولكن الناس كلهم كانوا يخشون أهل الباطنية ، فإن حيهم معقد لا يفهمه إلا أهله وسكانه ، ثم إن لديهم أسراراً من القوة لا يعرفها أحد ، فهم مسلحون بالمسدسات والبنادق والمدافع الرشاشة ، ولهم

مخابىء تحت الأرض . على أى حـــال كنت أريـــد أن أستريح الآن ، وكنت كذلك أريد أن أرى الطبيب الـذى قالوا عنه ، فقـد كان مرض رجلى يخيفنى جدا . وهـؤلاء الناس لاحظـوا أننى أعرج مع أننى لم أمش سوى مسافـة قصيرة ، فلابد أن عرجى كـان واضحاً . ربنا يستر .

ودخلت فوجـدت أم عبد الحميـد فى انتظارى . سـاعدتنى على دخول الفـراش ، وانتظرت حتى اطمأننت فى مكـانى ثم قالت : أراك عدت إلى رسم مشاريع .

قلت : اجلسى وقولى لى : كيف كنـت أستطيع أن أرفض اقتراحاً مثل هذا ؟.

إن حى الباطنيـة فعلاً مصيبة من مصائب القـاهرة ، وإذا كان من الممكن أن أشترك مع نـاس قـادرين على العمل لكى نقضى على أعشاش الإجرام فى ذلك الحى فلم لا ؟.

صحيح أننى أريد أن أضع حدًّا لنشاطى فى الفتونة ، ولكن آخر عمل عملته كان مأساة ، وقد اشتركت فيه مع الإنجليز ، وأنا لا أحب أن تكون هذه العملية فـاصلة فى تاريخى . ثم إنك ترين أننى مفلس بعد كل الذى فعلت . إننى بحاجة إلى مـال يارقية . إذا كان ولابد أن أعتزل فأنـا لن أعتزل إلا إذا كـان عندى مـال لكى أستطيع الحياة محترماً ، ثم إن رجلى هذه تخيفنى ، وإذا كان من الممكن أن يعالجها ذلك الطبيب الذى قالوا عنه ! .

ـ قل ماتشاء ، ولكنى لن أغير رأيـى ، وقد قلت لك إنك فى حاجة الآن إلى شىء واحـد : الراحـة ، لأن هذه الـراحـة جزء من العـلاج ، وصدقنى أن علاجك ممكن ولكن يبدو أنك لا تريد .

ـ أنا لاأريد ؟ هل من الممكن أن يكون الإنسان مصاباً بمثل هذا المرض ولا يريد الشفاء منه ؟.

ـ إذن فلابـد أن تسمع لى ، إنك دائما تـؤذى نفسك . من زمن أذيت نفسك بـالأكل الدسم ، والآن هـا أنت لا تريـد أن ترتـاح لكى يمكن علاجك .

ففكرت قليلاً ثم قلت : على أى حال فأنا لا أستطيع الاعتذار عن المشاركة فى عملية الباطنية .

ـ لابد أن تـرجع عن هذه الفكرة وتركـز على علاجك ، ليس لك الآن إلا أن تركز جهدك كله على علاجك . نم الآن أرجوك ..

ـ حسناً ، ولكن لا تنسى أننى فى حـاجة إلى رؤية الطبيب الذى تكلموا عنه .

ـ إن شاء الله ...

وبعـد أيام جـاء شعبان محمـود صالح ابن فتـوة العباسيـة وأخذنى بسيـارته إلى عيادة الدكتور رؤوف عبـد السلام فى وسط البلد . وكانت العيادة مليئـة بالمرضى ، ولكنه قدمنى وكشف على ، وطال الكشف وكنت معـه وحدى . وبعد أن فـرغ من الكشف قال :

شوف يامعلم ، أنت رجل نـاضـج وتفهم ، ولا معنى لإخفاء الحقيقة عنك وأنا لـن أقول لك ماذا عنـدك لأنك لن تفهم كـلامى ، إن مرض رجلك معقـد ولكنى أطمئنك : إن مـرضك كبير ، ولكـن من الممكن شفاؤك منه أو على الأقل من الممكن إيقاف تقدمه .

ـ وهل من العسير الشفاء منه تماماً ؟..

ـ سنحاول ، ولكن الأحسن هـو أن تعرف أننا مهما فعلنا فإن الممكن الآن هـو أن نوقف تقـدم هذا المرض ، ومن حسن الحظ أننـا أدركناه قبل أن تلتهب رجلك وتتفتح ، وفى هذه الحالـة كان علينا أن ندخل فى علاج طويل ، سأكتب لك الآن علاجاً تسير عليه لمدة شهر ، ثم أكشف عليك مرة أخرى ، وعليك بالـراحة التامة فى نفس الوقت ، وعليك أن تمدد رجلك وترفعها عن مستـوى جسمك بالنهار والليل مع الهدوء التام ، ولابـد من أخذ الأدوية بنظام تـام . لقد قلت لك إن مـرضك هذا من الممكـن أن نوقف تقـدمـه وسيقف تقدمـه إذا أنت اتبعت تعليماتى ولا داعى للتفكير من الآن فى إجـراء عمليـات لأنها عمليات معقدة وأمرها يطول ، ولكنى أعتقد أنك إذا سرت على الدواء مع النوم ورفع الرجل فإنك لابد أن تتحسن .

ولم أقل شيئاً لشعبـان محمود صالـح ، كل ما قلته لـه هو أن رجلى فى حـاجـة إلى عـلاج طـويل ، ولكننى سأشفى إن شـاء الله ، واتفقنا على أن نتلاقى بعد أسبـوع ، وعدت إلى بيتى وأرسلت جمعة لشراء الأدوية ، وذكرت تفاصيل الغذاء لأم عبد الحميد ، ورقدت وأنا

أشعـر أننى وصلت فى حيـاتى إلى منعطف خطير . ولكنى لم أخف ففى كل الكلام الذى قاله الطبيب لم يشر إلى أن هذا المرض قد يؤدى إلى الموت مثلاً ، وللمـرة الأولى فى حياتى شعـرت بأننى فى منعطف خطير ، ولكنى قلت : أستريح الآن ، فهذا هو ما أنا بحاجة إليه .

وبعد أيـام جاءنى شعبان محمود صـالح وكنت قد تحسنت ، وحـاولت أن أبـدو لـه أننى بـالفعل أحسن ، وأننى أستطيع قيـادة العمليـة ، ولاحظت أنـه سعد بـالحديث معى ، فقـال وهـو ينهض ليخرج :على أى الأحوال ، سأرسل كبار رجالى ليجتمعوا بك .

قلت : هذا حسن ، ويستحسن أن تعطيهـم فكرة عن أننى ربما قدت العملية كلها بنفسى ..

ـ هل أنت مصر على ذلك ؟.

ـ أظن ذلك . إننا نريد أن نضمن النصر .

ـ علـــى أى حـال فكر . إننـا نظن أننا سنقوم بالعمليـة بعد أسبوعين من اليوم ، وسيكـون هجومنا على مركز واحـد من مراكز الإجرام فى الباطنيـة ، واحد من مراكز تجارة الحشيش ، إنـه مركز قوى جدًا .

ـ تقصد مركز رمضان الدجوى !! .

ـ هو بعينه ، إنه يلقب نفسه بغراب الباطنية ..

ـ إن شاء الله ننتف ريشه .

ـ نحن واثقون من ذلك ، وسيمر عليك رضوان أبو رصاص .

ـ أنا فى انتظاره ، حبذا لو مر على غداً أو بعد غد .

ـ سيمر عليك بعد غد .

ـ حسناً ، وسأكون فى انتظاره .

ـ وقبل أن أخرج ، لابد أنك فى حاجة إل نقود . سنتحاسب بعد العملية ولكن هذه ألفا جنيه على الحساب .

ـ لا لزوم للنقود الآن ..

ـ كيف تقول إنه لا لزوم للنقود ، إن النقود أهم شىء فى عملنا هذا .

ـ لابد أن لديكم مالاً كثيرا .

ـ كويس والحمد لله .

ـ ولكنى لا أستطيع أن أقبل منك هذا المال ، ولا مؤاخذة إننى لا أقبل مالا لا أعرف مصدره .

ـ تقصد أنها ربما كانت فلوس حرام ؟.

ـ مثلاً ..

ـ شوف يامعلم . دعنا الآن من حكاية حلال وحرام . نحن سنقوم الآن بعملية ضخمة ، وسترى كيف نتصرف . خذ هذا المال ولا تخف ، إنه مساهمة منا فى إعداد رجالك ، إن هذه النقود مرسلة

إليك من والدى المعلم محمود صالح .

وأخذت المال منه بعد أن أفهمته أننى لست فى حاجة إلى نقود ، وشعرت بذلك فعلاً بعد أن خرج ، شعرت أننى لست فى حاجة إلى نقود ، ومن حسن الحظ أن معى زوجة مثل أم عبد الحميد . هذه المرأة حقيقة نموذج لأحسن مايمكن أن تكون عليه المرأة المصرية ، إنها نموذج للصبر والاحتمال والاستعداد للعمل والحب والتضحية ولديها ذلك الحنان الطاغى الذى يجعلك تشعر بأنك فى حماية حقا .

***

وسرت على العلاج بحذافيره بعد أن اقتنعت بخطورة مرضى وإمكان إيقاف تطوره إلى الأسوأ ، لم يهمنى قط أن أعرف حقيقة هذا المرض مادمت قد عرفت كيف أوقف تطوره . وخلال الأسابيع القليلة التى أعقبت ضربة مورامز فقدت حقيقة كل لذة فى الحياة ، والموت لم يعد يخيفنى ، وخاصة بعد أن استعرضت حياتى وأنا راقد فى الفراش وتبينت أن حياة رجل مثلى أنها كلها لا شىء ، أو قل إننى لم أحقق فيها شيئاً . لقد تزوجت ثلاث مرات قبل أم عبد الحميد . وزوجتى الأولى الست جليلة أنجبت منها ولدا هو إبراهيم استقر فى دمياط عند أسرة زوجته واشتغل بالتجارة ، وأنا الذى مولت له متجره الكبير هناك .. ونجح ثم انقطع عنى ، أو قل إننى أنا الذى انقطعت عنه ، وهذا هو الأصح ، لأن حياة الفتونة

لا تعطيك وقتاً لكى تكـون أباً فأنت دائماً تعيش فى جو مغـامرات ، وذهنك دائماً مشغـول بالفتـوات الآخرين وبـرجالك . ثم أين هـذه الزوجة أم الأولاد ؟ لقد طلقتهاثم عـرفت بعد ذلك أنها تزوجت رجلاً آخر وابتعـدت عنى ، وسمعت أنها أنجبت ، ثم اختفت عنى فى زحمة الحياة . أما ابنتى منها فلا زالت والحمد لله بخير وإن كنت لا أراها .

والذى أذكره أن هذه الزوجـة الأولى لم تكن زوجة ممتازة ، وقد غضبت عليها وتركتها واعتقدت حينذاك أنها مخطئة جدًّا فى حقى . والآن أرى أنها لم تكن مخطئة لهذا الحد ، فقد تـزوجتها وأنا أعيش على بقايـا محل الجواهر الذى ورثته من أخى ، وكنت أيـامها ضيق الصدر قصير البال ، والمسكينـة لم تستطع احتمالى ، ولكنها عرفت قبل طـلاقهـا كيف تقنعنـى بضرورة الإنفـاق على ابنى إبـراهيم وزواجه من نعمات الدمياطية الموسرة فـانشأت له محله فى دمياط . ثم جـاءت حياة الفتـونـة وقضت على كل شىء والـزوجة المطلقـة اختفت عن ذهنى ، وانشغلت عن ابنى وأولاده .

أمـا ابنتى نفيسة فأذكـر الآن أنها بنت جميلـة ولطيفة ، وقـد أحببتها وعلمتها ثم زوجتهـا من ابن أحد التجار ، وهذا الـولد كان ضابطاً فى الجيش ، ولأنه كان ضابطاً فقد كان من صالحه أن يبتعد عنى ، لأننى كنت إذ ذاك عـدواً للبوليس ، ولم أهتم بـذلك حينذاك ، ولكنى الآن وأنـا فى آخر حيـاتى أشعـر بالحنـان نحو هـذه البنت وأتمنى أن أجدها وأرى أولادها ، فلا شك أن لها أولاداً .

وبعد نحو ثمانى سنوات تزوجتُ إيناس ، وكانت سيدة جميلة ورقيقة وحنـونة ، وقد أحببت إيناس وأعتقـد أنها أحبتنى ، ولكنها كانت تصر على أن أتـرك الفتونـة ، وأنا لم أكن أفكـر إذ ذاك فى ترك الفتـونة ، والمسكينـة لم تحتمل حيـاة الفـوضى والصخب والعنف التى كنت أعيشها ، ولم يكن هناك مفـر من الطلاق ، أذكر أنها بكت كثيراً يوم ذهبت إلى بيت أهلها لأسلمهـا ورقة الطلاق وألفى جنيه ـ يومها قالت لى : إذا عدت إلى عقلك فستجدنى هنا فى انتظارك .

ولكنى لم أعد إلى عقلى ومضيـت فى حياتى ونسيتها ثـم عرفت أنها تزوجت وأنجبت يومها قلت : مع السـلامة أما الآن ، وأنا راقد مريض فإن قلبى يفيض بالأسى على إيناس وأيام إيناس ..

وهذه الذكريات تقطع قلبى الآن . ها أنا أرقد فى الفراش ، وأنا فى أوج حيـاة الفتونـة والنـاس تحسب أننى فى قمـة السعادة والقـوة والغنى ، ولكن ها أنا كما ترانى الآن فى قرار التعاسة والمرض والفقر أيضاً.

أقول : الحمد لله أن عندى أم عبد الحميد ، لابد أن أحافظ عليها ، فهى كنز بالنسبـة لى ، لقد أعطيتها كل مالى وأنـا فعلاً فى حمايتها ، أدامها الله لى وشفانى .

***

وبعد أيام مر على شعبان محمـود صالح ابن فتوة العباسية ـ كما ذكـرت ـ ومعه اثنـان من رجـالـه ، وكنت قـد تحسنت بعض

الشيء واستطعت أن أجلس على الكرسي . ولكنى كنت دائما ممدد الرجل وكنت أضع غطاء على رجلى . وساعة ما دخلوا كنت أشرب الشاى ، فرحبت بهم ، وقال شعبان أنت أحسن الآن ..

ـ بكثير ، والفضل لله ولك . أنت عرفتنى بالدكتور رؤوف عبد السلام وحجزت لى الموعد عنده .

ـ هل رأيت الآن أن القصر العينى ليس مستشفى ؟.

ـ لا يـاابنى لازلت أعتقد أن القصر العينى أحسن مستشفى فى مصر ، والأطباء هناك من أحسن أطباء مصر ، ولكن الناس كثيرون جدًّا يامعلم شعبان ؟ الناس هناك آلاف كل يوم ، وكل يوم يأتى ألوف من المرضى الفقراء الذين لا يملك الواحد منهم لقمة عيش ولكنه مريض وعلاجه يحتاج إلى ألوف . حقاً إن الدكتور رؤوف أستاذ عظيم ، وقد رسم لى خطة ممتازة لعلاج رجلى وكذلك كتب لى أدوية محترمة ، ولكنه لا يستطيع علاج الناس فى القصر العينى أقصد ليس لديه وقت .

فقال : تصوّر أنه لم يقل لى ماذا عندك ؟.

قلت : ولماذا يقول لك ؟ كان ينبغى أن يقول لى أنا ماذا عندى ، ولكنه لم يقل .

ـ على رأيك . وكل مايهمنى الآن أن أعرف أنك والحمد لله أحسن .

ـ أرجو ذلك .

وطلبت لهم الشاى وقال شعبان : لقد رسمنا خطتنا ، وأريد رأيك فيها .

ـــ يبدو أن العملية جد .

ـ مؤكد جد ! إنها عملية خطيرة وسنخرج منها بألوف بل بمئات الألوف .

قلت : وهل اتصلتم بالبوليس ؟.

فنظر إلى دهشاً وقال : البوليس ؟ وما شأن البوليس هنا ؟.

ـــ طبعاً ليس له شأن ، ولكنى أقول إن العملية مادامت تخدم الأمن فلا يضيرنا فى شىء أن نعرف رأى البوليس .

قال : أنا أقول لك دون سؤال : البوليس لا يريد أن يقوم أحد بشىء .. إنه يعرف أن حى الباطنية غارق فى بحر الإجرام ، وأن العصابات هناك ربما فاقت عصابات أمريكا ، والبوليس غير قادر على هذه العصابات ، ولكنه لا يريد أن يتدخل أحد ، أهون عليه أن يدع الإجرام يستشرى من أن يدعنا نحن نقوم بعمل لا يريد أن يقوم هو به .

ثم سألت : وماذا فعلت أنت ؟.

قال : كما ترى . لقد نبهت رجالى وأنا مستعد .

وسكت لحظات ثم قال : أعتقد يامعلم جوهرى أنك فى حاجة إلى رجال ، إن كل قوتك عشرة رجال .

ـ هذا صحيح ، ولكن رجالى العشرة بألف .

ـ إذا كنت أنت معهم فى المعركة .

ـ وهل من الممكن أن نخوض معركة ولا أكون أنا على رأس رجالى ؟.

ـ هذه فلسفتك . أما نحن فلا نحضر المعارك ، نحن نرسم الخطط ونختار الرجال ونشرف من بعيد . وفى مسألة الباطنية سنسير على هذه الطريقة . لقد أعددنا نحو ثلاثمائة رجل مسلحين ومتدربين .

ـ أما أنا فسأكون على رأس رجالى .

ـ غير ممكن يامعلم ، إنك لا تعرف رجال الباطنية الذين سنهاجمهم ، كلهم مجرمون من النوع الخطر ، وحرام أن تواجه هؤلاء الرجال المجرمين إن (أبو الفتوح محسب) عمدة الباطنية مجرم خطير جدًّا .

ـ سأرى ياشعبان ، سأرى وعندى الآن رأى .

ـ وماهو ؟.

ـ هو أن أقود أنا الرجال كلهم ، رجالى ورجالكم .

ـ هذا خطر عليك يامعلم .

ـ إن كل عملنا خطر .. كيف تتصور أن يكون الإنسان فتوة ويخوض المعارك دون أن يتعرض للخطر ؟.

ـ هذا هو الفن يامعلم ، نحن نخوض المعارك ونحن فى بيوتنا .. جرب هذه المرة .

ـ أما طريقتكم هذه فلابد أن أفهمها جيداً قبل أن أطبقها فدعنى أفكر ، وثق أننى سأكون معكم فى المعركة يوم الهجوم . أعتقد أننى لابد أن أرى رؤساء رجالكم أو رئيسهم على الأقل .

ـ وهل هذا ضرورى ؟.

ـ أعتقد ذلك . المعركة خطيرة ، وهؤلاء الناس فى الباطنية لهم مراكز ومعسكرات وأعشاش ، والهجوم عليهم ينبغى أن يكون شاملاً ، وقبل أن نهجم لابد أن نكون واثقين من النصر ، ثم قلت : على فكرة ، متى أرى رئيس رجالكم ؟.

ـ وقتما تريد ..

ـ بعد أن أقابل المعلم رضوان أبو رصاص سنتفق على ترتيب هذه المقابلة .

ـ إن شاء الله .! ثم قال : على فكرة ، هذه ثلاثة آلاف جنيه من والدى للاستعداد للعملية .

وخرجوا بعد أن ودعتهم ، وجاءت أم عبد الحميد وقالت : أرى أنك اتفقت معهم .

ـ ليس بعد . إننى أنظر كيف يرتب هؤلاء الناس أعمالهم ، إنهم يرتبون العمليات ولكنهم لا يدخلون المعارك ومن الغريب أننى لم أفكر فى ذلك من قبل الآن .

ـ لأنك يامعلم لست فتوة من طرازهم .

قلت لها : ربما كان ماقلتيه هذا هى حقيقة الموضوع كله . هؤلاء لصوص لا فتوات على أى حال . خذى هذه الفلوس . إنها هدية من المعلم محمود صالح فتوة العباسية . أردت أن أردها فلم أستطع .

قالت : ولماذا تردها ؟.

ـ يعنى ، أنا واثق أنها ليست حلالاً .

قالت : مادمت ستتعامل مع أولئك الرجال فلاتفكر فى الحلال أو الحرام .

ـ على رأيك .. خذى هذه الفلوس الآن .

ـ حسناً . والآن ، هل أعد لك الغداء .. ؟.

ـ أظن أننى سأنام الآن وساعدتنى أم عبد الحميد على النهوض والسير . ودخلت الحمام ، ثم الفراش . ونمت .

***

صحوت أحسن حالاً . وأحسست بالجوع . وأرادت أم عبد الحميد أن تأتينى بالطعام فى الفراش ، ولكنى فضلت أن أذهب بنفسى إلى مائدة الطعام ، وعندما جلست أحسست بإعجاب شديد بهذه السيدة ، فقد كان الطعام الذى أعدته جميلاً ولذيذاً .

وفى أثناء الطعام قلت لها : شوفى يارقية ، هذه أول مرة أقوم بمثل هذا العمل . هؤلاء الناس لا يعلم حقيقة أمرهم إلا الله . ولكنى أحس أننى سوف أكسب من التعامل معهم هذه المرة وأظن أننى لن أعمل معهم إلا مرة واحدة . اننى كما ترين قليل المال ، وأنا لا أستطيع أن أترك الفتونة وأنا على هذه الحال .

ـ تريد أن تقول إنك فى حاجة إلى نقود ؟.

ـ طبعاً ، وأقول لك الحق : لقد شعرت بالخجل لأننى عملت فى الفتونة هذا العمر الطويل ثم وجدت نفسى فى النهاية فقيراً بالمقارنة مع أولئك الناس الذين هم فى الحقيقة لا شىء ، لقد عرفوا كيف يجعلون الفتونة وسيلة لجمع المال ، أما أنا فو الله ماأدرى فيم أنفقت مالى وجهدى . إن المال الذى لديهم كثيراً وهم يعطوننى المال .

دون تفكير طويل قالت : وهل تظن أنك تكسب مالا من العمل معهم ؟.

ـ هذه المرة فقط ، لأننا فى الحقيقة سنضرب جماعة تستحق الضرب ثم إن جماعة الباطنية لديهم أموال .

ـ تقصد أنهم لصوص ؟.

ـ وأكثر من لصوص . تستطيعين أن تقولى إنهم مجرمون ، ونحن لا نتردد فى الهجوم على المجرم على أى حال .

قالت : وأين البوليس منهم ؟.

ـــ البوليس لا يستطيع الكثير مع نـاس كهؤلاء ، لأن البـوليس محكوم بقـوانين ونظم ، وهـؤلاء المجرمـون يرون فى هـذه القوانين والنظم نقطة ضعف فى بناء البوليـس وعمله . وهم يستغلونها أسوأ استغلال . ثم إن الاحتلال الإنجليزى وقوة السراى وقوة الباشوات كل هذه أضعفت البوليس ، ورجال الحكومـة القومية الآن يريدون أن يعيـدو بناء قـوة البوليس . وأنـا كما تعرفين على عـلاقة طيبـة بالبوليس ، ولهذا فإننى أفكر ـــ قبل الإقدام على هذه العملية ـ فى أن أتصل بالبوليس لكى أعرف رأيهم فى مثل ذلك العمل .

ـ هذه مسائل أنا لا أفهمها مثلك ، ولكنى أرى أنه من العقل أن تعرف رأى البوليس فى مثل هذه العملية .

ـ سنرى ، وصدقينى أننـى أرجو أن أفوز هذه المرة بمال كثير ينفعنى فى المستقبل ، ولكن دعينا نجـرب ، دعينا ندخل معـركة مع لصوص .

***

وبعد أيام أحسست أن رجلى قـد تحسنت بصورة تمكننى من السير مسافـات متوسطة . شعرت أننى أستطيع السير ثلث سـاعة مثـلاً ، فلبست أحسن مـلابسى وركبت سيـارتى إلى قسم بـولاق وهناك قابلت المأمور ، ووجدت منه تـرحيباً عظيماً ويبدو أنه توقع أن أطلب منه شيئاً كبيراً ، ولهذا أحسست أنه شعر باطمئنان عندما قلت له إن كل ماأطلبه منه هو أن يوصى بى زميله مأمور الجمالية .

ولم أبلغه بما أريد من مأمور الجمالية وإن كنت قد أعطيته فكرة عن أن ناساً من الفتوات يفكرون فى الهجوم على حى الباطنية .

وعندما لقيت مأمور الجمالية وجدت منه ترحيباً كبيراً ، ورجوته أن يكون اجتماعى به على حدة ، وعندما صرنا معاً قلت وأنا أشرب القهوة : مارأى سعادة اللواء فى القائمين بالتهريب فى الباطنية؟.

ـ ولماذا تسأل عن القائمين بالتهريب هناك ؟ هل تظن أن المجرمين هناك مقسمون أو أن إجرامهم فيه تخصص ..

ـ هذا هو مايقال .

ـ اسمع يامعلم . عندما تريد أن تعمل شيئاً مع مجرمى الباطنية فدع كل شىء فيه عقل جانباً ، لأن أولئك الناس متحصنون فى حوارى حيهم الضيقة ، ورجالهم متفرقون هناك ، وكل مجموعة منهم يتبعون واحداً أو أكثر من رؤساء العصابات ، وهم يعملون كل شىء ونفس العصابة ورجالها يقومون بالتهريب وتجارة الحشيش وإخفاء المجرمين ، فإذا كنت تريد أن تعمل شيئاً هناك فاحسب حسابك على أنك فى أى حالة تنازل كل مجرمى الباطنية .

ـ وإذا فرضنا ذلك فإننى أسأل : ماذا يكون موقف البوليس فى حالة الهجوم على الباطنية ؟.

فاعتدل فى مجلسه وقال فى صوت جاد : هل تفكر فى أن تقوم بالهجوم على حى الباطنية ؟.

ـ أنا لا ، ولكنى سمعت أن بعض الفتوات يفكرون فى شىء مثل ذلك ، ولهذا رأيت أن أراك .

ـ كنت أظن أن أمر الفتوات قد انتهى ، ولكن يبدو أنهم مازالوا موجودين ، والآن قل لى ماهى التفاصيل التى لديك .

ـ أقول لك الحق : ليست لدى الآن تفاصيل . ولكنى أحببت فقط أن أعرف ماذا يكون موقف البوليس فى حالة الهجوم على الباطنية ؟.

ـ أنت إلى الآن صريح معى ، وسأكون صريحاً معك ، لو استطعنا لما أبقينا على عصابة هناك ، فإذا كان هناك ناس يريدون أن يضربوا أولئك المجرمين فتأكد أننا سنبذل جهدنا فى الوقوف على جنب ، ولن نتدخل إلا إذا وقع قتل أو نهب على نطاق واسع مثلاً .

ـ أى أن نهب أموالهم وضربهم لا يهمكم كثيراً ؟.

ـ طبعاً يهمنا ، ولكننا نفكر قبل أن نتدخل ، إن رجال هذه العصابات مجرمون فعلاً ، ونحن لا نغامر برجالنا بالهجوم عليهم ولهذا فإننا ـ كما قلت لك ـ سنجتهد فى الوقوف على الحياد ، ويهمنا جدًا ـ بعد الهجوم أن يقول لنا أولئك الناس ماذا فعلوا .

ـ ولماذا بعد الهجوم ؟.

ـ لأنهم لو قالوا لنا ذلك قبل الهجوم لكان من واجبنا منعه ، وبينى وبينك أنا لا أريد منع هذا الهجوم ، لأن مجرمى الباطنية

مصدر متاعب لا نهاية لها لى ولرجال البوليس معى ، ولكى نقضى على مجرمى الباطنية لابد لى من عشرة أضعاف من عندى من الرجال ، وأضعاف مالدى من السلاح ، ثم إن الحكومة لابد أن تقفل عينها تماماً ، فلا تدخل بعد ذلك فى تحقيقات وسين وجيم ، وهذا هو السبب فى أننى أتحاشى إلى الآن القيام بشىء حاسم ، إننى أتمنى أن أقوم بذلك ولكننى لا أستطيع ، ومن هنا تفهم أنه لا مانع عندى فى أن يضربهم غيرى ، شريطة ألا تكون هناك جنايات قتل أو نهب واسع المدى .

ـ إذن فاسمح لى أن أقول لك إن محمود صالح فتوة العباسية يخطط للقيام بهجوم على مراكز التهريب فى الباطنية ، وقد اتصل بى يرجو أن أساعده فى ذلك .

ففكر لحظات ثم قال : أنت تعرف أننى لا أستطيع أن أقول لك فى هذه الحالة افعل أو لا تفعل ، ولكن أرجو فى حالة قيامكم بشىء أن تبلغنى أنت بالذات بكل ماحدث .

ـ ذلك لك . إننى كما تعلم حريص جدًا على علاقتى بالبوليس ، ولكن أولئك الناس فعلاً يستحقون الضرب ، فإذا نحن ضربناهم فثق أنك ستكون أول من يعلم .

ـ وأهم من ذلك أن تحترس ، لأن أولئك الناس لا يؤمنون بشىء ، وسأقوم الآن بإبلاغ الداخلية بما قلته لى ، ولكنى لن أذكر اسمك ، وأظن على أى حال أن الداخلية لن تفعل شيئاً ، لأنهم فى الداخلية مشغولون الآن بإعادة بناء البوليس .

ـ حسنـاً ، أنا أذهب الآن ، ولكنى أعـدك بأن أراك قبل أن نقوم بشىء .. إذا قمنا .

ـ مع السلامة ، وثق أننى من جهتى لن أتأخر قط فى معاونتك أنت بالـذات ، وأنا عندى هنـا كما تعلم قوة لابأس بها ، وقـد بنيتها بجهد كبير خـلال ثلاث سنوات ، وهـذه أرقام تليفـونى وأرجو أن تعطينى أرقام تليفونك .

ـ لا تليفون عندى .

ـ ياســـلام ! وده اسـمه كـلام . اذهـــب غـداً إلى التليفـونات سيركبون لك تليفونين أو ثـلاثة إذا شئت . هل تحب أن ندفع نحن الاشتراكات؟.

ـ لا ، عنـــدى مال والحمـد لله ، وإن كنت أرى ألا لزوم لـذلك ياسعادة المأمور .

***

وشعرت بتحسن تام ، ولم تعد رجلى تـؤلمنى ، كان الإقبال على شىء كبير شغلنى حتى عن نفسى ، والحقيقـة أننى بعد أن تحدثت إلى المأمور وعرفت موقف الحكـومة من عمل كهذا تشجعت وقررت الاشتراك فى ذلك العمل ، وجاءنى شعبـان محمود صـالح ابن فتوة العبـاسيـة وتحدث معى مليـا ، وأعطـانى فكـرة مفصلـة عن حى

ـ حسنـاً ، أنا أذهب الآن ، ولكنى أعـدك بأن أراك قبل أن نقوم بشىء .. إذا قمنا .

ـ مع السلامة ، وثق أننى من جهتى لن أتأخر قط فى معاونتك أنت بالـذات ، وأنا عندى هنـا كما تعلم قوة لابأس بها ، وقـد بنيتها بجهد كبير خـلال ثلاث سنوات ، وهـذه أرقام تليفـونى وأرجو أن تعطينى أرقام تليفونك .

ـ لا تليفون عندى .

ـ ياســـلام ! وده اسـمه كـلام . اذهـــب غـداً إلى التليفـونات سيركبون لك تليفونين أو ثـلاثة إذا شئت . هل تحب أن ندفع نحن الاشتراكات؟.

ـ لا ، عنـــدى مال والحمـد لله ، وإن كنت أرى ألا لزوم لـذلك ياسعادة المأمور .

***

وشعرت بتحسن تام ، ولم تعد رجلى تـؤلمنى ، كان الإقبال على شىء كبير شغلنى حتى عن نفسى ، والحقيقـة أننى بعد أن تحدثت إلى المأمور وعرفت موقف الحكـومة من عمل كهذا تشجعت وقررت الاشتراك فى ذلك العمل ، وجاءنى شعبـان محمود صـالح ابن فتوة العبـاسيـة وتحدث معى مليـا ، وأعطـانى فكـرة مفصلـة عن حى

- ولكن الآخرين لن يشتركوا ، سيكتفون بإرسال رجالهم ؟.

- هـذه طريقتهم ، أما أنـا فلى طريقـة أخرى ، لأننى إذا دخلت معركـة فلابـد أن أنتصر ، وأنا لا يمكن أن أثق فى النصر إلا إذا كنت هناك ، وليس معنى ذلك أننى لا أثق فى رجـالى ، لأن الواقع أننى أثق فيهم بغير حدود ، ولكن اشتراكى فى المعركـة يحمينا من المفاجآت ، ثم إن لى فى المعارك تصرفاً أنت تعرفه .

ـــ كلنا نعـرف ذلك . على أى حال اعتمد على الله ثم علينا ، كنت أنوى أن أتزوج خلال الأيـام القادمة ، ولكنى أرى الآن أننى لابد أن أؤجل الزواج .

- هذا رأيى أنا أيضاً ، والمسألـة على أية حال مسألة أيام ، الآن انصرف وتعود إلى بعد ثلاثة أيام .

- إن شـاء الله - ثم أضاف : ربما احتجنا إلى نقـود أخرى ، إن رجالنا الآن تسعة .

- توكل على الله وسنرى .

وكنت أنـوى أن أعطيه كل مـايطلب ، وكانت تلك طـريقتى : أن أعطى رجالى حتى أملأ عيونهم وأكون واثقاً من أنهم سيبذلون آخر جهدهم معى ، وهذا ماكان يقع بالفعل وكانت نظريتى أننى لابد أن أنتصر فى كل معاركى .

***

وكنت أعرف أنهم قرروا ألاَّ يقودوا هم الهجوم ، ولكنى كنت أعرف أيضاً أنهم ماداموا سيتغيبون عن المعركة تاركين الأمر لرجالهم فإننى سأعرف كيف أتصرف ، وأقود الهجوم كله .

واتفقنا على أن يكون الهجوم يوم الجمعة مساء ، ورسمنا خطتنا على أن تدوم المعركة حتى تتحطم كل قوى المهربين من أهل الباطنية ، وعندما بدأنا الهجوم بعد صلاة العشاء استوقف نظرى أن رجالهم لم يكونوا فى الواقع إلا لصوصاً ، وتبينت عندما بدأت المعركة أن أحداً من حلفائى لم يكن يعرف شيئاً يوثق به عن الباطنية ، فهذا حى غريب كله حوارى ضيقة وأوكار لا يعرف تفاصيلها إلا أهلها ، أما نحن القادمون من الخارج فكان كل شىء جديداً علينا ، ومن حسن الحظ أن رجال فتوة العباسية استطاعوا أن يقتحموا مقاومة المهربين ، وقد تحملوا خسائر جسيمة وتراجعوا ، وهنا وجدونى مع رجالى وكانوا فى أشد الحاجة إلى عون فقلت لرؤسائهم : لا تتراجعوا أكثر مما تراجعتم ، انضموا إلى وسأقودكم ، وكل ماأطلب إليكم الطاعة التامة وأن تدلونى على الأوكار والمخازن وحصون المهربين .

واستجابوا لى ، ودلونى بالفعل على أسرار هذا الحى ، وتركونى أقود المعركة وأعجبنى محمد منسى طنطاوى ، فقد كان شجاعاً باسلاً ، وبعد ساعتين من المساجلة قال لى : هذا هو وكر رمضان العتابى رئيس المهربين ، سنهجم عليه وحدنا لأن رجال العباسية انهزموا وتفرقوا وقتل منهم اثنان وجرح كثيرون .

ولم أكن فى حاجة إلى أكثر من ذلك ، فهجمت ورجالى معى على بيت العتابى واقتحمناه وحاول بعض الرجال اعتراضى فلم يثبتوا ودخلنا البيت ، أو البيوت بمعنى أصح ، وأمسكنا برجال تبين أن فيهم خازن الأموال ، وكان رجلاً بشعاً ضخم الجثة وأراد أن يخدعنى فضربته ضربتين فوقع إلى الأرض ، وأخذ منسى الطنطاوى المفاتيح وفتح ، ونادى رجاله فنهبوا البيت وأنا أحرسهم وقلت لمنسى : لابد أن نقضى على كل مقاومة .

فقال : انتهوا ولم تعد هناك مقاومة ، هربوا ، ولا أدرى إلى أين؟.

ـ والأموال ؟.

ـ هذه بعضها ورجالنا يحطمون الخزنة الآن .

ـ لابد أن هناك من يفتح هذه الخزانة ، ابحثوا عنه .

وبحثوا عنه وأتوا به ، وكان قد أصيب فى فخذه ، فحملناه إلى الخزنة .. ففتحها ، وقلت لمنسى : الآن تأخذون هذا الرجل وتنتظرون فى الخارج ، سنذهب بعد ذلك إلى قصر العينى ، وسنأخذ هذا الرجل معنا .

ودامت هذه المعركة العنيفة إلى قرب الفجر ، فأخذنا كل ماحصلنا عليه واتجهنا إلى مركزنا خارج الحى.

وقلت لمنسى : الآن تترك هذه كلها معى وتمضى مع بقية

الـــرجـــال إلى مستشفى قصر العينى وسيقـــوم الـدكتـــور القلل باستقبالكم ، وسيرحب بكم عندما يعرف أنكم من ناحيتى .

ـ وإذا لم يكن هناك ؟.

ـ أى رجل سيقوم بالواجب نحونا إذا عرفوا أنكم رجالى .

وسرت مع ستة من الرجال ومعنا عربـة يد وجدناها فى الطريق هناك ، فـوضعنا فيها مامعنـا واتجهنا نحو السيـارة ، ووصلنا إلى بيتى ، وأخذت كل شىء وأشهدت الـرجال على أن كل شىء فى أمان ثم قلت : هل فيكم جريح ؟.

وصاح واحد منهم : أنا ، أصابتنى ضربة خنجر خلف كتفى !.

فقلت لسائق السيارة : تأخـذه إلى القصر العينى ، هناك ستجد منسى الطنطـاوى فـــاتـركـوه معـه والآن تعـــودون إلى بيـوتكم لتستريحوا ، وتأتون غداً فى الساعة العاشرة صباحاً شكراً يارجال .

وكان نور الفجر قد بدأ يضىء ، وعندما انصرف الرجال أعطيت كل شىء لأم عبـد الحميـد ، لأننى كنت متعباً جـدًا ، وكـان ذراعى الأيمن يؤلمنى ولابد أنـه أصيب وجلست أستريح وسمعت صوت أم عبد الحميد تقول : لابـد أنك جائع الآن ، غير ملابسك الآن حتى أعد لك الطعـام ، ثم نظـرت فى ذراعى وقـالت : لابأس والحمـد لله ، إنها ضربة بعصا وسأربطها لك بعد أن تغتسل .

واغتسلت ، ولم أكن قد شعرت إلى هـذه اللحظة بالجوع ، ولكن

عندما أتت أم عبد الحميد بالطعام أكلت فى نهم ، وشربت ماء كثيراً ، ثم قادتنى إلى الفراش وربطت ذراعى فرقدت ونمت قبل أن تعطينى أى دواء .

***

أظن أننى نمت فى الخامسة والنصف صباحاً واستيقظت فى التاسعة والنصف مساء ووجدت كل ماحولى فى غاية الهدوء ، وقالت أم عبد الحميد لسة بدرى .. تستطيع أن تنام ساعتين أو ثلاثاً .

ـ سأحاول . ولكنى أرجوك لا يقلقنى أحد .

وحاولت النوم فلم أستطع ، ولكنى بقيت مطمئناً فى الفراش ومضيت أستعرض الذى حدث فأدركتنى الدهشة لأن رجال العباسية ، وهم الذين فكروا فى هذا الهجوم ودبروه لم يكونوا حمل معركة كهذه ، ويبدو أنهم لم يكن لهم من الفتونة إلا الاسم ، فقد كنت أسمع عنهم وأخافهم ، ولكن هاهم الآن جبناء ، وكل مافعلوه أن رجالهم فتحوا لنا الطريق بأساليب لا أعرفها ، ولكن أولئك الرجال لم يثبتوا لرجال الباطنية الذين اختبئوا فى كل أوكار حيهم ، ومعهم السكاكين والخناجر والمسدسات أحياناً ، وكان لابد من الحذر الشديد أثناء التقدم ، وقد استطعت التقدم بمعاونة منسى الطنطاوى ، واستطعت كما قلت أن أفتح الخزينة وآخذ ما فيها .

وكان الخروج أصعب من الدخول ، وأظن أننا احتجنا إلى أكثر من ساعة ونصف قبل أن نكون خارج هذا الحى الملىء بالأخطار ، وأين رجال العباسية أثناء ذلك ؟ لقد قتل منهم اثنان وجرح نحو خمسة ، أما الباقون فالله أعلم أين ذهبوا ؟. وكان لابد أن أنتظر حتى يأتى منسى لكى أعرف ماذا أصاب رجالنا .

وأظن أننى عدت إلى النوم ، ولكنى صحوت تماماً فى الحادية عشرة ، وقمت من الفراش وأنا أشعر بشىء من السرور ودخلت الحمام ، ثم أبلغتنى أم عبد الحميد أن منسى ورجلين قد أتوا ، وخرجت للقائهم بعد عشر دقائق ، ولم يعجبنى منظر وجه منسى أول مارأيته ، وجلست وانتظرت الشاى ، ثم مررت بيدى على وجهه وقلت : إيه يامنسى ، كيف حالك ، وكيف حال رجالنا ؟.

ـ كسبنا المعركة ، ولكن خسائرنا ثقيلة ـ قتل اثنان من رجالنا وجرح ثلاثة ، لم يسلم أحد منا من جروح ، هؤلاء شياطين .

ـ لا بأس . نحمد الله على أى حال وأنا أيضاً أصبت بضربة عصا مؤلمة فى ذراعى الأيسر ، الآن نرى ماحصلنا عليه ، وأهم ماعندنا ، كما تعرف هو أن نعوض القتلى .

وناديت أم عبد الحميد ، فأحضرت الأشياء التى عدنا بها كما هى ، وقام منسى بفتحها وجدنا أشياء ذهبية كثيرة : أساور ، غوايش ، خلاخيل وعقود ، أما الأموال فكانت حوالى ثلاثة آلاف جنيه ، قلت لمنسى : كيف سنتصرف فى هذا الذهب الكثير ؟.

ـ كما ترى ؟.

ـ مـــن رأيى أن ننادى أهل القتيلين ونعطيهم حتى يـرضوا ، وبالفعل حضرت زوجـة أحدهم وكانت فى غـاية الحزن ، وقلت لها : الآن تجففين دموعك وتنظرين ، خذى هذه ، وأعطيتها خلخالاً كبيراً وأربعة أزواج من الأساور وقلت لها : هل تجدين فى هذه كفاية ؟.

ـ أعطنى شيئاً من النقود .

فأعطيتها خمسمائة جنيه ، ويبدو أن هذا سرها ، فلم تعد تبكى وأتتهـا أم عبـد الحميد بكيس فـوضعت فيـه ذلك وقلت لها : هـذا تعويضك عن خسارتك ، وليس لك عندنا بعد ذلك شىء .

وهـزت رأسهـــا ونهضت ومضت ، وفعلت مثـل ذلك مع أخت القتيل الآخـر وكـانت تتـولى تربيـة أولاده ، وقلت بعـد ذلك : خـذ يامنسى مـاتحتاج إليه من هـذه المجوهرات ، وخذ ألف جنيـه لأننا سنقسم الباقى .

فقال : خذ أنت مـاتريد ياسيدى ، أنـا أرى أن تأخذ ألفى جنيه وماتريد من المجوهرات والباقى نقسمه فيما بيننا .

قلت : أعطنى أنت ماترى ، المهم أن تكون أنت والرجال راضين ، ومن حسن الحظ أن الغنيمـة كانت وافـرة ، وخـرجت أنا من هـذه الغارة بثلاثة آلاف جنيه وجواهر قدرتها أم عبد الحميد بثلاثة آلاف جنيـه أخـرى ، وأخـذ الـرجـال كفـايتهم ، وقلت لمنسى : ورجـال العباسية ، ماشأنهم ؟.

قـال : والله لا أدرى يـاسيـدى ، هـؤلاء اختفـوا خـلال نصف الساعة الأولى من الهجوم ، لا أدرى فيم كـان تفكيرهم عندما دبروا هذا الهجوم ؟.

قلت : الآن لاشىء لهم عندنا ، أنـا لا أشك فى أنهم فازوا بشىء ضخم فى الهجوم الأول ، فلما امتلأت أيديهم هـربوا ، والآن لو أتوك أو أتونى فلا شىء لهم عندنا .

وأخذ كل من الرجال نصيبـه ومضى ، وأقفلنا الباب وقامت أم عبد الحميد بـوضع ما حصلنا عليه فى صنـدوق كبير وقالت : الآن أنت تستريح ، سـآخـذ هـذه الأشياء إلى مكـان لا يعلم بـه أحـد . والحمد لله على أن تمت هـذه العملية على هـذه الصورة ، وأقـول لك الحق لقد كنت خائفـة عليك ، والآن من رأيى أن أقول لكل من يسأل عنك أنك لست هنا .

ـ لا داعى يارقية ، نحن نعرف مـالنا وماعلينا ، ونعرف كذلك بماذا نرد على من يطرق بابنا ، هـذه آخر عملية أقوم بها لأننى أريد أن أعالج رجلى ، وياحبذا لو ركزنا الآن على محل العطارة ، سأحاول الراحة بضعة أيام ، وفى أثنـاء ذلك تكونين أنت قد اتصلت بمن جاء بعد منسى العطار لكى نعرف كيف يسير محل العطارة .

وقلت بعد قليل : هل تعرفين كيف نتصرف فى هذا الذهب ؟.

ـ ولماذا نتصرف فيه ؟ الـذهب دايماً ذهب ، وهـو دائماً أغلى ، سنحتفظ به كما هو وأظن أننـا يستحسن أن نفتح حساباً فى البنك

لكى نضع فيه هـذه النقـود ، ولكنى أرى أن تستريح الآن لأنك فى حاجـة إلى الراحة فعلاً ، ونمت وقـامت بتغطيتى ، وكنا فى منتصف الليل.

تحسنت حالى خـلال بقية الأسبـوع ، ولكن حالـة رجلى كانت تسـوء ، وأحسست أننى لابد أن أذهب إلى المستشفى وفعـلاً ذهبت وكشف على الدكتور القللى ، وعملوا تحاليل وأشعات ثم قال لى :

أظن يـامعلم خليل أن رجلك فى حالـة سيئة ، لابد أن أصـارحك بذلك ، وأنت رجل لست صغيراً .

ـ مالها رجلى ؟.

ـ هو داء الفيل . دائما حالته هكذا ، إن الرجل تسوء دائماً أكثر وأكثر وها أنت ترى كيف أن رجلك تورمت ، وستزداد تورماً ، ومن يدرى فربما تتفتح .

ـ وماذا أعمل ؟.

ـ سنجتهـد هنا فى إيقـاف تقدم المرض ، ولكن شفـاءه تماماً مستحيل . إنـه مـرض ملعون يبـدو أن ذبـابة تنقـل ميكروبـه إلى الإنسان.

ـ وما العمل ؟.

ـ تستـريح تمامـاً . على أى حال لن تستطيـع الاستمرار فى الفتونة ، ولابد أنك تشعر الآن بإجهاد .

ـ فعلاً أنا أشعر أننى مجهد .

ـ ستبقى هنا معنا نحو عشرة أيام نوقف فيها تطور المرض ونطمئن على حالك ، ثم تعود إلى بيتك حيث لابد أن تظل ساكناً فى فراشك وتأتينى كل شهر مرة .

ـ يعنى حياتى انتهت !.

ـ لا ، ولا انتهت ولا حاجة ! ستعيش ، ومثلك لابد أن لديه أموالاً كثيرة مدخرة .

ـ تصدق بالله يادكتور ؟ إننى خجلان أن أقول لك ، ولكن هذه هى الحقيقة : إننى لم أجمع مالا كثيراً من الفتونة ! كسبت كثيرا ولكنى أنفقت كثيراً لأن نظريتى كانت أن أخوض المعارك بنفسى ، وأن أوزع أكبر قدر من المال على رجالى حتى يظل إخلاصهم لى ، وفى الضربة الأخيرة مثلاً هجمنا على حى الباطنية وأخذنا ألوفا من الجنيهات ولكنى وزعت على رجالى نحو خمسة آلاف جنيه .

ـ يعنى تريد أن تقول : إنك لا تستطيع أن تعيش كما تريد ؟.

ـ ليس على المستوى الحالى .

ـ إذا كنت تريد أن تعيش فى المستشفى ؟.

ـ لا لا لا يادكتور ، أعود إلى بيتى وأدبر أمرى وأنا شاكر لك .

قال الدكتور : سأعطيك الآن أدوية مسكنة وأخرى مطهرة وحاول أن تنام ، ستمكث معنا هنا عشرة أيام هذه المرة .

وعدت إلى بيتى بعد عشرة أيام . كانت حالة رجلى قد تحسنت ووجدت أن مأمور البوليس يسأل عنى ، فأرسلت محمد منسى الطنطاوى إليه ليبلغه أنى مصاب فى رجلى ، ولا أستطيع الانتقال وأتانى الرجل إلى البيت ، أحسست أنه يظن أننى لابد أن أكون قد فزت بغنيمة كبيرة ، فقصصت عليه كل شىء فاستمع إلى فى هدوء ثم قال : أنا فاهم ، معلهش ، برضه تستطيع أن ترسل ألف جنيه نوزعهم على العساكر ، أنت تعرف أن هؤلاء الناس مرتباتهم بسيطة .

وقالت أم عبد الحميد : والله ياسعادة المأمور : إننا لا نستطيع أن ندفع إلا خمسمائة جنيه أنا زوجة المعلم ، وأعرف كل ماعنده ، وقد أنفق هذه المرة على من مات من رجاله ومن جرح نحو عشرة آلاف جنيه ..

فهز الرجل رأسه وقال : طيب هاتى الفلوس . ونادى شاويشاً أخذ المبلغ وخرج

وبعد خروجه قلت لأم عبد الحميد : كيف حال مركزنا الآن ؟.

ـــ مش كويس ، ولكننا نستطيع أن نعيش . المهم أننى فهمت الآن أنك لابد أن تستريح .

قلت : سأستريح ، وأظن أننى سأترك الفتونة ، مارأيك فى محمد منسى الطنطاوى ؟.

ـ كويس ، شاب كويس .

ـ أقول : سأترك له قيادة رجالى وأترك أنا هذه الشغلانة نهائياً .

ـ افعل ماتريد .

وبالفعل ناديت منسى الطنطاوى وأبلغته بالأمر ، ودهش الشاب أول ماعلم ذلك ولكنه سلم بالأمر ونادينا بقية الفرقة وأعلنت إليهم ذلك وقلت لهم : شوفوا يارجال ، إن شغلتنا هذه صعبة وكلها حرب ، وأنا تعبت ومرضت وأريد أن أترك هذا العمل نهائيا ، ولهذا اخترتُ محمد منسى الطنطاوى ، إنه من الآن فتوة شارع محمد على وحى الجمالية .

وقال واحد منهم : لن نعمل إلا معك !.

ـ أنا لن أعمل الآن ، إن رجلى مصابة والدكتور أمرنى بأن أوقف العمل ، أرجو أن تتبعوه .

وتناقشنا طويلاً ، واستقر الرأى على أن يحل هذا الشاب محلى ، وخرج مع بقية الرجال ، وبقيت مع أم عبد الحميد ، ولم يبق معى من الرجال إلا جمعه .

ولم أشعر بأى حزن لترك هذا العمل ، فعلاً كان لى فى البلد اسم وهيئة وعظمة ولكن الشغلانة لم تكن مسلية لى على الأقل ، ثم إن رجلى كانت تخيفنى فقررت أن نعيش فى هدوء وبعيداً عن كل ضجة وتولت أمورى أم عبد الحميد ، فهى التى تملك كل ماتوفر لى من المال ، فتركت لها الأمر كله ، وظللت فى بيتى الكبير أياماً ، ولكنى أحسست أننى لا أستطيع الاستمرار فيه فجعلت أفكر فى أن أنتقل إلى بيت أصغر .

وزارنى بعض الفتوات وعرضوا على أن أعمل معهم ، ولكنى

قلت لهم : إننى لا أستطيع الآن على الأقل ، فإن رجلى مريضة ولابد أن أستريح ، وكان لخروجى من عالم الفتونة ضجة كبيرة فقد كنت فعلاً أملأ فراغاً واسعاً ، وكان من المعروف أننى أكبر فتوات مصر ، ولكن مثل هذا العمل ضجة كبيرة بلا حقيقة فى الواقع ، وعلى الرغم من اسمى الكبير فقد بدأ الناس ينسونى ، وحالى هذا شبيه بحال رجال السياسة : ترى الواحد منهم يملأ الدنيا طالما كان فى الوظيفة فإذا خرج منها لم يعد أحد يذكر اسمه .

ولا حظت كثرة الناس الذين يطالبوننى بنقود عندما علموا أننى مريض ، ولكنى وقفت صلباً . ثم إنه لم يكن لدى فعلاً نقود ، وأخيراً وعندما وجدت مع أم عبد الحميد أننا لن نستطيع الاستمرار على هذه الحالة قررنا ترك المنزل الكبير الذى كنا نقيم فيه ، والاستغناء عن ستة خدامين كانوا يعملون عندنا بالإضافة إلى بواب ضخم وكل هؤلاء كانوا يتكلفون كثيراً .

وظللنا نقيم فى البيت مع ذلك ، ولكنى تبينت أن البوليس لا يسكت عنى ، فقد مضى عصر المأمور العظيم الذى كان يتعاون معى ، وجاء ضباط آخرون يظنون أننى رجل غنى جدًّا ، وبعد زيارات كثيرة من جانبهم اتفقت مع أم عبد الحميد على أن ننتقل إلى هذا المسكن الذى وجدتنى فيه فإن إيجار الشقة هنا ــ غرفتان وصالة ــ جنيهان فقط ، ثم إن البيت يطل على شارع محمد على وسوق خضار العتبة ، فأنا هنا أتسلى فى حين أننى كنت أختنق من الوحدة فى البيت الكبير ، ثم إننى هنا مجهول أى أن أحداً لا يعرف أننى الفتوة القديم ، فأنا هنا مرتاح مع أننى تعبان صحيًّا ، لكنى على الأقل عايش كما ترى ، والآن وقد ساعدتنى فى علاجى

وتحسين أحوالى فأنا أحمد الله وأستطيع الحياة رغم مرضى .

وبعد ، فهذه ذكريات فتوة ، إنها حياة ملأى بالضجة والأعمال الضخمة ولكنها حياة لا تسر ، وربما كنت أسر بها لو لم أكن من عائلة جواهرجية ، لأننى لا أحب السرقة ولا النهب ولا أرضى بالفساد ، ولكنى على أى حال استطعت أن أصل إلى أعلى مستوى فى عالم الفتونة أيام كانت الفتونة وظيفة اجتماعية وأمنية وقومية ، أما اليوم وبعد تقدم البوليس وأجهزة الأمن وقوة النظام الحكومى ، فلم يعد هناك مكان للفتونة ، وأنا الآن فى الثانية والستين وأحمد الله على أى حال .

وبينى وبينك أقول لك : إننى أعيش بفضل أم عبد الحميد ، فهذه السيدة أدخرت من مكاسبى فى الماضى ٤٠٠ جنيه ذهباً ، ولا أدرى أين تخفيها ، ولكنها على أى حال تصرف كل شهر جنيها ذهبياً لتنفق علينا منه ، ومصاريف علاجى كثيرة ، وأهى ماشية ، ثم إننى أحاول الاتصال بابنى إبراهيم الموجود الآن فى دمياط ، وقد علمت أن حالته طيبة وأنه تاجر ناجح ، والفضل لله ثم لى ، فأنا الذى زوجته من بنت تاجر غنى هناك ، ولا ننسى أن ابنى إبراهيم هذا تلميذك وله الفضل فى تعرفى عليك .

لقد قمت بعمليات بطولية كثيرة ، ولكن صدقنى أن البطل الحقيقى لكل معاركى هو هذا الشعب المصرى العظيم الصبور ، فى سبيله جاهدت والآن ها أنا أتفرج عليه من شباك هذه الشقة التى أجرتها أنت لى ، وأنا عايش والحمد لله .. لا تنسانى أرجوك !.

تمت والحمد لله

رقم الإيداع ٧٢٤٧ لسنة ١٩٩٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5324 — 05 — X